د. يحي بوعزيز
تلمسان

د. يحي بوعزيز

تلمسان

عاصمة المغرب الأوسط



بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد وتقديم :

لقد شهدت تلمسان فى العصر الاسلامي الوسيط حياة فكرية رائدة ، وحركة تنوير واسعة للعلوم والمعـارف الاسلامية المختلفة امتدت تأثيراتها واشعاعاتها الى المـدن والعواصم الاسلامية الكبرى فى مغرب العالم الاسلامي ومشرقه .

وانكب شعب هذه المدينة ، وأمراؤها وسلاطينها ، على البناء الحضاري بمفهومه الواسع ، وشهد القـرن الثامن الهجري (والرابع عشر الميلادي) بناء عدد من المدارس العلمية ، وانكباب جيل من العلماء للتدريس بها ، وتثقيف الأجيال وتنويرها ، والنهوض بها ، الى الآفاق السعيدة .

وهكذا أسس الأمير أبو حمـو موسى الأول ، أول مدرسة علمية بتلمسان فى مطلع القرن الثامن الهجـري

خصصها للعالمين الفاضلين ابني الامام : أبي زيد عبد الرحمن ، وأبي موسى عيسى ، ليدرسا بها • ومن بعده أسس ابنه الأمير تاشفين الأول المدرسة التاشفينية بجانب الجامع الأعظم حيث مركز البلدية الحالي • وفي عام 748 هـ (1347 م) أمر السلطان المريني أبو الحسن ببناء مدرسة العباد الحالية • وبعده أمر ابنه أبو عنان ببناء المدرسة العنانية بجانب ضريح الولي الصالح أبي عبد الله الشوذي الحلوي الأشبيلي عام 754 هـ (1356 م) • وبعد حوالي ست سنوات أمر الأمير أبو حمو موسى الثاني ببناء المدرسة اليعقوبية عام 763 هـ (1362 م) بجانب ضريح قبور : أبيه أبي يعقوب ، وعميه : أبي سعيد عثمان، وأبي ثابت ، وخصصها للعالم الفقيه أبي عبد الله محمد الشريف الحسني التلمساني ، وولده أبي محمد من بعده ، ليدرسا بها ، وينشرا علومهما ومعارفهما الواسعة • وفيها دفن العالم الصالح ابراهيم المصمودي تلميذ أبي عبد الله الشريف • وقد أزال الاستعمار الفرنسي هذه المدارس كلها وخربها ما عدا مدرسة العباد بجوار ضريح أبي مدين شعيب •

ويعود سبب ازدهار الفكر والثقافة بتلمسان خلال هذه الفترة وما بعدها الى عدة عوامل أهمها : موقعها الجميل بين الشرق والغرب الأندلسي ، والشمال التلي ، والجنوب الصحراوي •

فهي أولا : عقدة مواصلات لطرق القوافل التجارية بين التل والصحراء ، تزود الجنوب ببضائع الشمال المختلفة الزراعية ، والحيوانية ، والصناعية ، وتستورد منه بضائعه الصحراوية المختلفة خاصة : الأصواف ، والجلود ، وتبر الذهب ، والعبيد ، والسمن ، والملح ، وأنياب الفيلة ، وريش النعام ، وعظامه • وحجر النيلة ، وبعض الأدوات الجلدية •

وهي ثانيا : منبت ومحط أنظار العلماء والمفكرين ، وطلاب العلم والمعرفة الذين يفدون اليها من الغرب الأندلسي ، ومن المشرق ، للتعلم والتعليم في مدارسها الناهضة ومساجدها الجامعة •

وهي ثالثا : محطة عبور لقوافل الحجاج الذين يغدون ويروحون بين بلدان المشرق من جهة ، وبلدان المغرب والأندلس من جهة أخرى ، لأداء فريضة الحج ، وزيارة قبر الرسول ، ولممارسة الأعمال التجارية ، وتلقي العلم ، والمعرفة على أجلة الشيوخ وأكابر العلماء •

وبفضل هذا الموقع الاستراتيجي الهام لمدينة تلمسان ، وبفضل تلك المدارس العلمية العديدة التي أنشئت بها خلال القرن الثامن الهجري (14 م) استقطبت عددا كبيرا ، قد لا يحصى ، من عمالقة الفكر والأدب ، وأساطين

الثقافة والمعرفة ، بمفهومها الواسع ، وفروعها العديدة والمتنوعة : الدينية ، واللغوية ، والتاريخية ، والأدبية وغيرها ، البعض منهم من أبنائها ومواليها ، والبعض الآخر جاؤوا اليها من الأصقاع البعيدة شرقا وغربا وجنوبا ، واستقروا بها وأصبحوا من أهلها وذويها .

ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر : أبو جعفر الداودي (ت عام 402 هـ) وأبو الحسن علي بن ثنون (ت 557 هـ) . وأبو علي الأشيري (ت 570 هـ) ، وأبو مدين شعيب بن حسين الغوث (ت 594 هـ) . وأبو عبد الله التجيني (ت 610 هـ) . وأبو عبد الله بن عبد الحق (ت 625 هـ) وابن يخلف التنسي (ت 680هـ) ومحمد بن مرزوق القيرواني (ت 681 هـ) ، وأحمد بن مرزوق (ت 741هـ) ، ومحمد ابن مرزوق الجد والخطيب والرئيس (ت 781 هـ) ، ومحمد بن مرزوق الحفيد (ت 842 هـ) ، ومحمد بن مرزوق الكفيف (ت 901هـ) وأحمد بن مرزوق حفيد الحفيد ، وابن خلف التلمساني (ت 690 هـ) ، وأبو الحسن التنسي (ت 706) ، ومحمد السلاوي (ت 737 هـ) ، وأبو زيد عبد الرحمن ابن الامام (ت 743 هـ) ، وأخوه أبو موسى عيسى ابن الامام (ت 794 هـ) ، وأبو موسى عمران بن موسى المشدالي (ت 745 هـ) ، وأبو عبد الله محمد التميمي

(ت 745 هـ) ، وأبو عبد الله محمد المقري (ت 759 هـ) وابن خميس التلمساني (ت 708 هـ) وابن هدية القرشي (ت 735 هـ) ، ومحمد بن أبي جمعة التلالسي طبيب السلطان أبي حمو موسى الثاني ، وأبو زكريا يحيى بن خلدون (ت780 هـ) ، وابن النجار (ت 749 هـ) ، وأبو عبد الله بن ابراهيم الآبلي الأصل ، التلمساني المولد والنشأة ، الذي تتلمذ عليه شيوخ وعلماء أجلاء ، على رأسهم : عبد الرحمن بن خلدون ، وأخوه يحيى ، والمقري الكبير ، وأبو عبد الله الشريف ، وابن مرزوق الجد ، وسعيد العقباني ، وابن الصباغ وغيرهم ، (ت 757 هـ) ، وأبو عبد الله الشريف (ت 771 هـ) ، وابراهيم المصمودي (ت 805 هـ) ، وسعيد العقباني (ت 871 هـ) ، وابن زاغو المغراوي (ت 845 هـ) ، ومحمد بن العباس (ت 871 هـ) ، والامـــام محمد بن يوسـف السنوسي (ت 895 هـ) ، وابن عبد الجليل التنسي (ت 899 هـ) وأحمد بن زكري (ت 900 هـ) ، ومحمد بن عبد الكريم المغيلي (ت 909 هـ) ، وأحمد البيدري (ت 930 هـ) ، وعلي بن أحمد بن الفحام ، ومحمد ابن الحباك (ت 867هـ) وعـلي بن محمد البسطي القلصادي (ت 891 هـ) ، وغيرهم • ان هذه القائمة الصغيرة جدا ، لبعض أعلام مدينة تلمسان ، وعلمائها الأجلاء ، في عصورها الاسلامية الزاهرة ، تكفي دليلا على مدى النهضة والرقي اللذين

بلغتهما الحضارة الاسلامية بتلمسان خاصة والجزائر وكل بلدان المغرب بصورة عامة .

ومن الطريف أن نذكر هنا أن كثير من هؤلاء العلماء الأجلاء ، لم تكن تعيقهم الحدود والحواجز السياسية ، ولم يكونوا يخافون أو يرهبون من الأمراء والملـــــوك والسلاطين بل ان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو شعار أغلبهم وكانوا بحق علماء عالميين يتنقلون بين مختلف العواصم الاسلامية للتعليم والتدريس والوعظ والارشاد والتأليف ، ولنصح الملوك والأمـــراء والسلاطين ، ولا يتحرجون من زجر أي سلطان ، وترك خدمته والانتقال لخدمة سلطان آخر ، وأبرز مثل على ذلك ، ابن مرزوق الجد والخطيب وعبد الرحمن بن خلدون ، ولسان الدين بن الخطيب ، وأبو زيد عبد الرحمن ابن الامام ، وأخوه أبو موسى عيسى ، وأبو مدين شعيب الغوث ، وأبو عبد الله أحمد الشريف ، وعبد الكريم المغيلي ، وأحمد المقري .

وهذه الدراسة التي نقدمها اليوم للقـــراء عن مدينة تلمسان كانت فى الأصل جزءا من مخطوط كبير يحمل عنوان : وهران ، وتلمسان عبـــر التاريخ ولكن نظرا لضخامة حجمه قسمناه الى قسمين اثنين واحد عن مدينة وهران عبر التاريخ ، وقد قدمناه الى الطبع منذ مدة .

والثاني خصصناه لمدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط وقسمناه الى ثلاثة أقسام : الأول والثاني قصيران أوجزنا في أولهما الحديث عن تاريخ مدينة تلمسان من عابر الأزمان، وفي ثانيهما تاريخ الدولة الزيانية الى انقراضها في منتصف القرن السادس عشر الميلادي مع الاشارة الى بعض آثارها العمرانية الباقية حتى اليوم .

أما القسم الثالث والأخير ، فهو صلب الكتاب ، ويمثل أكثر من ثلثي : حجمه ، وخصصناه لدراسة عدد لا بأس به من الشخصيات العلمية والفكرية التي أنجبتها هذه المدينة أو عاشت بها ، وارتبطت بتاريخها وكان لها تأثير بالغ في الحياة الفكرية والدينية ، والثقافية ، والاجتماعية والسياسية ، سواء داخل تلمسان والجزائر . أو خارجها بالمغرب الأقصى ، والأندلس ، وأعماق الصحراء ، وتونس بلدان المشرق العربي الاسلامي الأخرى .

ومن هذه الشخصيات التي سلطنا عليها الأضواء : أبو مدين شعيب بن الحسين ، وعلماء أسرة ابن مرزوق العجيسية ، وأسرة العقباني التجينية ، وأبو عبد الله محمد الشريف ، وعبد الرحمن بن خلدون ، وأخوه يحيى ، وعبد الكريم المغيلي ، وعلماء أسرة المقري ، وذلك اسهاما في بعث أمجاد تاريخ هذه البلاد الفكرية والحضارية العربية الاسلامية ، والانسانية بصفة عامة .

واذا كان لابد من شكر أحد ، فهما : السيد أورحمان عبد الرحمان ، بديوان المطبوعات الجامعية بوهـران ، والسيد محمد أمير مدير القسم الفني والثقافي باذاعـة وهران الجهوية ، اللذان بذلا معي جهدا خاصا فى ضرب هذه النسخة على الآلة الكاتبة ، فاليهما والى كاتبيها أقدم الشكر كل الشكر ، ولا أنسى كذلك أن أشكر الأخ أحمد تقاز مدير مكتبة جمعية الجغرافية والآثار لمدينة وهران الذي ساعدني فى الحصول على معظم المصادر ذات الصلة بهذه الدراسة • وكذلك دراسة مدينة وهران •

فباسم الله وعونه نقدم هذه الدراسة تحت عنوان : تلمسان عاصمة المغرب الأوسط • آملين أن تجد صداها ومكانتها لدى كل المهتمين بتاريخ وحضارة الجزائر وكل بلدان المغرب الأخرى راجين أن تسهم فى حفز الأقلام الشابة على بعث المزيد من تاريخ وتراث هذا البلد العريق•

والله يوفقنا الى ما فيه الخير والصواب •

د• يحيى بوعزيز
جامعـة وهـران

وهران ـ حي الصادقية
الخميس 29 ذو الحجة 1403 هـ
06 اكتوبر 1983 م

القسم الأول

تلمسان عبر التاريخ

مدينة تلمسان عبر التاريخ :

أ) نشأة مدينة تلمسان وتطورها التاريخي

ان لمدينة تلمسان ماضيا تاريخيا هامـا اكتسبته من موقعها الجغرافي الممتاز ، ومن كونها كانت عاصمة للمغرب الأوسط (الجزائر) أكثر من ثلاثة قرون ، ازدهر خلالها الفكر ، وأخصبت الحضارة وتطور العمران ، واستهوت العديد من رجالات الفكر والسياسة والثقافة مما جعلها فى الأخير مدينة الفن والثقافة والتاريخ .

ويتألف اسمها من كلمتين بربريتين همـا : (تلم) ، ومعناها تجمع و (سان) ومعناها اثنان ، ومعناهما معا « تجمع اثنين » الصحراء والتل . بمعنى أنها تجمع بين طبيعة التل والصحراء لوقوعها فى مكان ملائم لذلك ، فهي تقع فى سفح جبل طرارة ، وتشرف على ساحل بحري يجثم تحت أقدامها وغير بعيد عنها حيث ميناء الغزوات الشهير ولا تبعد كثيرا عن الهضاب العليا ، والصحراء ذات الطبيعة والمناخ الصحراوي ، وقد نقل يحيى ابن خلدون

هذه الرواية عن شيخه محمد بن ابراهيم الآبلي الذي كان يعرف اللغة البربرية ، ويحسن معاني ألفاظها (1) .

ونواة هذه المدينة القديمة قرية (أقادير) التي اختطها بنو يفرن الزناتيون فى العصــور القديمة ، وكانت هي والمناطق المجاورة منطقة التوطن لقبيلة زناتة الكبيرة ذات الفروع المتعددة ، وثاني القبائل القوية بالمغرب العربي بعد صنهاجة وتليها كتامة .

ونظرا لأهمية أقادير هذه وجمال موقعها نسج السكان حولها أساطير كثيرة يحكونها عبــر التاريخ من ضمنهــا الأسطورة التي تدعي بأن القرية أزلية الوجــود ، وأن الجدار الذي ورد ذكره فى القرآن حول قصة الخضر مع موسى عليهما السلام ، فى قوله تعــالى : « وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة » يوجد بقرب هذه القرية أقادير ، وقد أورد ابن خلدون هذه الأسطورة واستبعدها باستهجان مؤكدا أن موسى لم يغادر المشرق الى المغرب وأن بني اسرائيل لم يصل نفوذهم الى افريقيا (تونس) فضلا الى ما وراءها من الأقاليم البعيدة ، وانما ذلك كما

1 ـ ابو زكرياء يحيى بن خلدون : بغية الرواد فى ذكر الملوك من بني عبد الواد جـ 1 . تقديم وتحقيق الدكتور عبد الحميد حاجيات (الجزائر 1980 م) ص 85 ـ 92 .

ذكر ابن خلدون ، من قبيل التشيع الذي جبل عليه الناس فى تفضيل وتقديس أوطانهم وبلدانهم (2) •

وكما تعتبر هذه الأسطورة خيالية ، فكذلك لا يصدق القول بأن مؤسسي أقادير هم الرومان لأنها أقدم منهم بكثير، والمؤسسون الحقيقيون لها هم بنو يفرن الزناتيون • وقد تحدث عنها ابن الرقيق فى تاريخه مرتين : مرة عند الحديث عن حملة أبي المهاجر دينار الذي ذكرت عنه بأنه توغل فى ديار المغرب حتى وصل الى تلمسان وحفر بالقرب منها عيونا أصبحت تدعى باسمه : عيون أبي المهاجر ، ومرة أخرى عندما تحدث عن نشاط ابراهيم بن الأغلب والي الزاب ضد الخوارج ، وقال عنه بأنه وصل الى تلمسان ونزل بها •

وهي نفس الحادثة التي تحدث عنها الطبري عندما استعرض أحداث أبي قرة اليفريني الخارجي زعيم بني يفرن مع أبي حاتم والخوارج وأبو قرة هذا خارجي المذهب تزعم قومه الذين بايعوه بالخلافة فى منتصف القرن الثاني الهجري (148 هـ ــ 765 م) وشارك فى حصار مدينة طبنة بجبال الحضنة على رأس حوالي أربعين ألفا

---

2 ــ عبد الرحمن بن خلدون : كتاب العبر • ج 7 • (القاهرة ــ ط • بولاق 1284 هـ) ص 76 ــ 78 •

من الصفرية ضد الوالي عمر بن حفص بن أبي صفرة ، ثم تتبعه الى القيروان ، وحسب رواية ابن خلدون فانه حاصرها بجيش يتألف من 350 ألف رجل بينهم 85 ألف فارس ، وبعد هذه الحوادث عاد أبو قرة الى أقادير واستقر بها صحبة قومه الذين كانوا أشد بأسا وقوة من المغيليين ، وأقل حماسا للمذهب الخارجي باعتبارهم صفرية معتدلين ، ويمتد موطن بني يفرن ما بين أقادير ، وتاهرت ، كما ذكر ابن خلدون .

وعندما استقر ادريس الأكبر ، بالمغرب الأقصى اتجه الى اقليم تلمسان ، واستمال اليه الأمير محمد بن خـزر بن صولات الزناتي ، الذي حمل مغراوة وبني يفرن عـلى طاعة ادريس ، ومكنه من السيطرة على أقادير فأقام بها أشهرا واختط مسجدا ومنبرا .

وبعد رحيله استخلف على أقادير واقليمها أخاه سليمان بن عبد الله الذي قدم من المشرق . وفي خلال ولاية ادريس الثاني الأصغر زار أقادير عام (179 هـ ــ 795 م) وأقام بها ثلاث سنوات ، أخضع خلالها قبائل زناتة ، وأصلح مسجد القرية ومنبرها وبعد رحيله استخلف عليها ابن عمه محمد بن سليمان .

وبعد وفاة ادريس الثاني قسمت بين أبنائه وبني عمه بوصية من أمه كنزة ، وكانت مدينة أقادير من نصيب عيسى بن ادريس بن محمد بن سليمان بينما كانت ضواحيها وأحوازها من نصيب محمد بن سليمان الادريسي .

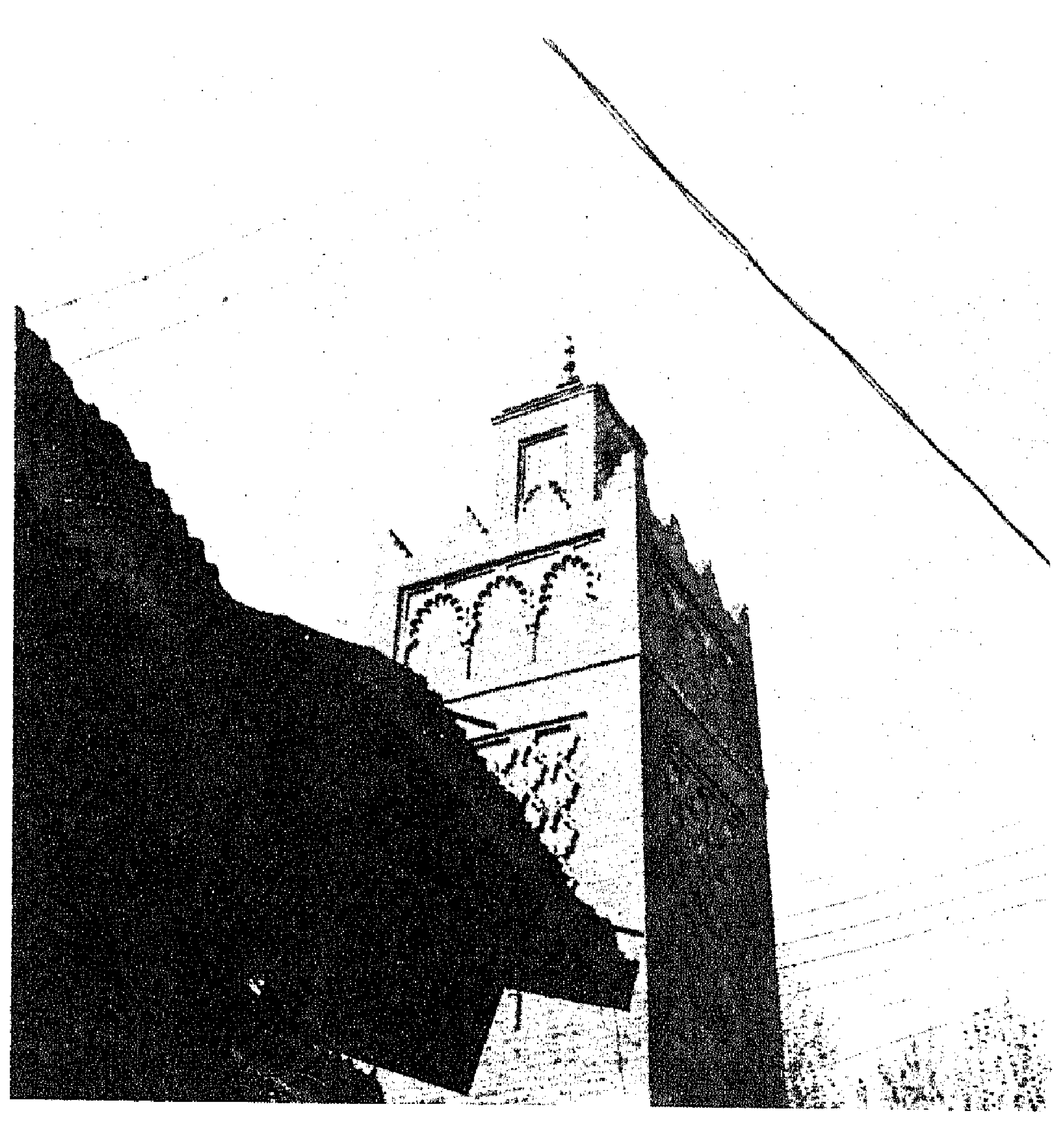
وعندما انقرضت دولة الأدارسة بالمغـرب الأقصى ظهر موسى بن أبي العافية الشيعي وغزا أقادير عام (219 هـ ــ 834 م) وتغلب على أميرها الحسن الادريسي الذي اضطر الى الفرار الى مليلية وتحصن بها مدة ، وقاوم ابن أبي العافية وأمراء الشيعة ، وأعقاب الأدارسة فى أقادير ومنطقتها ، فمالوا الى الأمويين وشايعوهم ، وتغلب يعلى بن محمد ابن صالح اليفريني على بلاد زناتة والمغـرب الأوسط ، وعقد له الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر فاغتنم هذه الفرصة ووسـع نفوذه حتى شمـل وهران وتاهرت ، وأصبح يمتد بين تاهرت وطانجة حوالي عام (340 هـ ــ 854 م)

ولم يزل سلطان يعلى وبنوه يقوى ويتوسع حتى قامت الدولة الفاطمية فغزت أقادير والمغرب ، وقضت عليهم ، وقتل جوهر الصقلي يعلى فورا ولكن الأبناء استطاعوا أن يبعثوا امارة أجدادهم من جديد بفاس ثم بسلا بالمغرب الأقصى ، وقد تحارب أمير أقادير محمد بن الخير بن محمد بن خزر ، داعية المستنصر ، مدة طويلة مع أمراء

صنهاجة ورثاء الفاطميين الذين انتقلوا الى مصر الى أن قتل فدخلت أقادير تحت حكم الصنهاجيين مدة من الزمن • الى أن ظهر زيري بن عطية الصنهاجي بالمغرب الأقصى ، فاستبد بها على اثر انقسام دولة صنهاجة ، وغزاها المنصور بن بلكين بن زيري ، وأولى عليها ابنه يعلى بن زيري من آل خزر اليفرنيين ، وعاشت أقادير عهدا من الاضطرابات نتيجة لهذه الحروب بين الحماديين الصنهاجيين وأمـــراء المدينة اليفرنيين •

وقد مدت الدولة المرابطية سلطتها الى أقادير وأقليمها وعين الأمير يوسف بن تاشفين على أقادير محمد بن تينعمر المسوفي ، ثم أخاه تاشفين من بعده ، وواجهت أقادير خلال عهديهما حروبا واضطرابات بين أمرائها ، وأمراء قلعة بني حماد ، خاصة المنصور بن الناصر الحمادي مما أدى الى انقراض امارة مغرارة من أقادير •

وخلال حكم محمد بن تينعمر المسوفي عــلى أقادير أسس قرية « تاكرارت » بالمكان الذي عسكر فيه، ومعناها : المحلة أو المعسكر ، وكانت فى بداية الأمر هذه « المحلة » مفصولة بسور عن أقادير ، ثم بعد مدة من الزمن أزيل هذا السور ، وضمت تاكرارت الى أقــادير ، وتكونت منهما مدينة واحدة هي مدينة تلمسان الحالية •



مسجد من عهد المرابطين .

وقد بقيت تلمسان تحت حكم المرابطين حتى قامت دولة الموحدين على أنقاضها وقام عبد المؤمن بن علي بغزو مدينة تلمسان عام (540 هـ ـ 1145 م) بعد أن سيطر على وهران وقضى على الأمير المرابطي بها تاشفين بن علي وقد أحدث عبد المؤمن بتلمسان تخريبا فى عمرانها ، وتقتيلا فى سكانها الذين رفضوا فى البداية الخضوع له وتسليم المدينة اليه وبعد مدة شعر عبد المؤمن بالجرم الذي ارتكبه نحوها فعمل على استصلاح ما خربه واستجلب البنائين من الأماكن البعيدة فأحيوا ما اندثر منها وتخرب من العمران ورمموا أسوارها ، ثم عين عبد المؤمن عليها سليمان بن وانودين من مشايخ هنتاتة وأخايير الموحدين ، ومن بعده ابنه أبا حفص ومن جاء من عقبه .

وشهدت تلمسان خلال عهد الموحدين تطورا هائلا فى الحضارة والعمران ، وبرز فيها من الزناتيين بنو عبد الواد، وبنو توجين وبنو راشد الذين تغلبوا على ضواحيها والمغرب الأوسط ، وملكوها ، وتقلبوا فى بسائطها واحتازوا بأقطاع الدولة ، كما قال ابن خلدون الكثير من أرضها والطيب من بلادها ، والوافر للجباية من قبائلها ، فاذا خرجوا الى مشاتيهم بالصحراء خلفوا أتباعهم وحاشيتهم بالتلول لاعتمار أرضهم وازدراع قوتهم وجباية الخراج من رعاياهم ، وكان بنو عبد الواد من ذلك فيها

بين البطحاء وملوية ساحلة ، وريغة وصحراوة ، وصرف ولاة الموحدين السادة نظرهم واهتماماتهم بشـأنها الى تحصينها وتشييد أسوارها ، وحشد الناس الى عمرانها والتناغي في عمرانها واتخـاذ الصروح والقصور بهـا والاحتفال في مقاصد الملك واتساع خطة الدور (3) .

وقد شيد بها الأمير أبو عمران موسى بن يوسف بن تاشفين عندما تولى امارتها عام (556 هـ — 1261 م) عددا من الأبنية ، ووسع عمرانها وأحاط أسوارها بسياج متين . وعلى غراره فعل أبو الحسن بن أبي حفص ابن عبد المؤمن خاصة بعد أن ظهر التأثر الميورقي يحيى بن غانية عام (581 هـ — 1185 م) واكتسح المغـرب الأوسط ابتداء من بجاية ، وهدد عدة مـرات تلمسان وأحدث بها تخريبات كثيرة ، هو ومن معه من عرب بني هـلال .

ومن أجل ذلك اهتم أبو الحسن بتحصينها حتى أصبحت كما قال ابن خلدون من أعز معـاقل المغرب ، وأحصن أمصاره ، وأصبح الناس يفدون عليها من كل جهة للاحتماء بها والتمتع بالتطور التاريخي والحضاري الذي تنعم به خاصة بعد أن خرب ابن غانية مدينة تاهرت الداخلية ،

3 — عبد الرحمن بن خلدون . كتاب العبر . جـ 7 . ص 77 .

ومدينة أرشكول الساحلية ، فأصبحت هي قبلة الجميع ، ومهد ذلك لبني عبد الواد ليتخذوها عاصمة لهم ، ودار ملك منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي .

وقد وصفها ابن خلدون خلال عهدهم فقال : « فاختطوا بنو زيان » بها القصور المرونقة والمنازل الجميلة، واغترسوا الرياض والبساتين ، وأجروا خلالها المياه ، فأصبحت أعظم أمصار المغرب ، ورحل اليها الناس من القاصية ، ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع فنشأ بها العلماء ، واشتهر بها الأعلام ، وظاهت أمصار الدول الاسلامية والقواعد الخلافية (4) .

وقال عنها البكري : هي مدينة المغرب الأوسط ودار ملك زناتة ومتوسطة قبائل البربر ، ومقصد تجار الآفاق ، بها أسواق ومساجد ، ومسجد جامع ، وأشجار وأنهار وكان الأول قد جلبوا اليها ماء من عيون تسمى : اللوريط بينها وبين المدينة ستة أميال ، ولها خمسة أبواب : فى القبلة باب الحمام ، وباب وهب ، وباب الخوخة ، وفي الشرق باب العقبة ، وفي الغرب باب أبي قرة ، وفيها للأول آثار قديمة وأكثر ما يوجد الركاز بتلك الآثار .

---

4 — نفس المصدر ص 77 — 78 .

أمــا محمد العبدري فقد وصفها في رحلته قائــلا :
« تلمسان مدينة كبيرة سهلية جبلية جميلة المنظر ، مقسومة باثنين بينهما سور ولها جامع عجيب مليح متسع ، وبها أسواق قائمة ، وأهلها ذوو ليانة ، والدائر بالبلد كــله مغروس بالكرم ، وأنواع الثمار ، وســوره من أوثق الأسوار وأصحها وبها حمامات نظيفة أشهرها حمام العالية قل من يرى له نظير ، وبالجملة هي ذات منظر ومخبر ، وأنظار متسعة ، ومبانيها مرتفعة » .

وهكذا ذكر لها أيضا يحيى ابن خلدون خمسة أبواب هي : قبلة ، باب الجياد : وشرقا باب العقبة ، وشمالا باب الحلوى ، وباب القرمدين وغربا باب كشوط ، وهي مؤلفة من مدينتين ضمهما سور واحد أحداهما : أقادير والأخرى تاكرارت ، وهي الآن أكبر وأشهر من الأولى ، والجامع الأعظم وقصور الملك ، ونفيس العقار بهــا ، والناس اليها أميل وبها أشد عناية .

وبالغ أبو الفدا فذكر لها ثلاثة عشر بابــا . وأطنب لسان الدين بن الخطيب في وصفها قائلا : « تلمسان مدينة بين الصحراء والريف ووضعت في موضع شريف كأنهــا ملك على رأسه تاجــه ، وحواليه من الدوحات حشمه

وأعلاجه . عبادها يدها ، وكهفها كفها ، وزينتها زيانها ، وعينها أعيانها هواها المقصور بها فريد ، وهواؤها الممدود صحيح عتيد ، وماؤها برود صريد حجبتها أيدي القدرة عن الجنوب ، فلا نحول بها ولا شحوب ، خزانة زرع ومرج ضرع ، فواكهها عديدة الأنواع ومتاجرها فريدة الانتفاع وبرانسها رقاق رقاع .

ومن شعر شاعرها التلمساني الفحل ، محمد بن خميس قولـه :

تلمســان لو ان الزمان بهـــا يسخو

مني النفس لادار السلام ولا الكـــرخ

ب) وصـف يحيى ابن خلدون لمدينـة تلمسـان :

ولأهمية وصف يحيى بن خلدون لمدينة تلمسان ، ونقوله أوصاف غيره نورده ، ونوردها كما وردت فى الجزء الأول من كتابه : بغية الرواد فى ذكر الملوك بني عبد الواد ، رغم طولهـا •

قال أبو زكريا يحيى بن خلدون :

« ودار ملكهم فيه وسط الصحراء والتل ، تسمى بلغة البربر تلمسن كلمة مركبة من : تلم ، ومعناها : تجمع ، وسن ، ومعناها اثنان • أي : الصحراء ، والتل ، فيما ذكره شيخنا أبو عبد الله الآبلي رحمه الله ، وكان حافظا بلسان القوم • ويقال : تلمشان ، وهو أيضا مركب من : تل ، و معناه : لها ، وشأن ، أي : لها شأن » •

« مدينة عريقة فى التمدن ، لدنة الهوا ، عذبة الماء ، كريمة المنبت ، اقتعدت سفح جبل ، ودين رأسه بسيطها أطول من شرق الى غرب عروسا فوق منصة ، والمشاريخ

مشرفة عليها اشراف التاج على الجبين ، تطل منه على فحص أفيح معد للفلح ، تشق ظهوره الأسلحة عن مثل أسنمة المهاري وتبقر عن بطونه عند تدميث الغمائم بطون العداوي •

« بها للملك قصور زاهرات اشتملت على المصانع الفائقة ، والصروح الشاهقة ، والبساتين الرائقة ، مما زخرفت عروشه ، ونمقت غروسه ، ونوسبت أطواله وعروضه ، فأزرى بالخورنق ، وأخجل الرصافة ، وعبث بالسدير •

« وتحف بخارجها الخمائل الألف ، والأدواح الأشبة ، والحدائق الغلب ، بما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، من الفواكه ، والرمان ، والتين والزيتون ، الى المتنزهات الرائعة ، والملاعب الحالية ، والمعاهد الكريمة ، فما شئت من جو صقيل ، ومغرس للحسن ومقيل ، ومالك الألباب وعقيل ، وقال للبلابل وقيل •

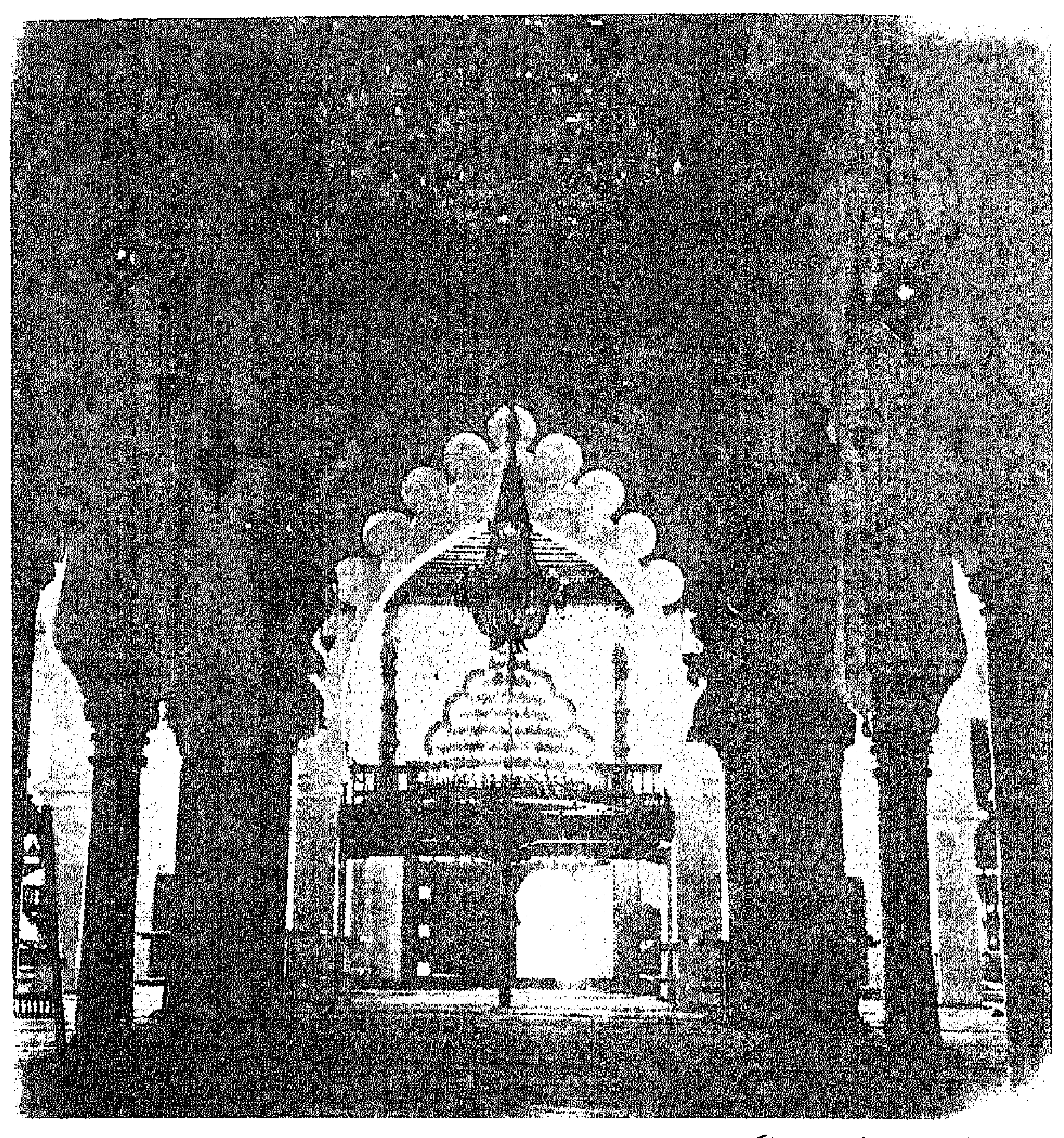
« وتنصب اليها من عل ، أنهار من ماء أسن ، تتجاذبه أيدي المذانب والأسراب المكفورة خلالها ، ثم ترسله بالمساجد ، والمدارس والسقايات ، فالقصور ، وعليه الدور والحمامات ، فيفعم الصهاريج ، ويفهق الخياض ، ويسقى ريعه خارجها مغارس الشجر ، ومنابت الحب ، فهي التي

سحرت الألباب وراء ، وأصبت النهي جمـــالا ، ووجد المادحون فيها المقال فأطالوا وأطابوا •

وتوسطت قطرا ذا كور عديدة ، تعمرها أمشاج البربر والعرب ، مريعة الجنبات ، منجبة للحيوان والنبات ، كريمة الفلح زاكية الأصابة • فربما انتهت فى الزوج الواحد بملاته منها الى أربعمائة مد كبير ، وهو ستون برشالة زنتها ثلاثة عشر رطلا من البر ، ســوى الشعير والباقلاء ، حسبما تضمن ذلك رسم سنة ثمان وخمسين وسبعمائة •

« ولها خمسة أبواب : قبلة باب الجياد ، وشرقا باب العقبة وشمالا باب الحلوي ، وباب القرمدين ، وغربا باب كشوط ، وهي مؤلفة من مدينتين ضمهما الآن سور واحد : أحدهما أولية يقال ان بها جدار الخضر عليه السلام ، وأن سحرتها ممن نادى فرعون القبط •

وتعرف بأجادير ، قال فيها عبيد فى مسالكه : مدينة فى سفح جبل ذي جوز ، أبوابها خمسة ، ثلاثة قبلة : باب الحمام ، وباب وهب ، وباب الخوخة ، وواحد شرقا هو باب العقبة ، وواحد غربا ينسب الى أبي قرة ، وبها آثار عادية ، وكنائس حتى الآن بالنصارى معمورة ، وكثيرا ما يوجد بها الركاز ، وماؤها مجلوب من عين لور يطل



قاعة الصلاة بالمسجد الكبير .

على قيدستة أميال ، ويجاورها اصطفصيف المنصب من شاهقها ، عليه مدار أرجائها .

وهي قاعدة المغرب ، ودار ملك زناتة ، ومحل العلماء ، المحدثين ، والصلحاء ، نزل بها سليمان بن عبد الله بن حسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنه ، وملكها من ولـده أبو العيش عيسى ابن أبي ادريس بن محمد بن سليمان .

وذكرها صاحب جغرافية فقال : دار ملك قديمة البناء طيبة الهواء ، كثيرة الفواكه والزرع ، ذات عيون غزيرة ، وأعمال متعددة ، باردة المشتى لكثرة ثلجها ، وأهلهـا موسومون بالخير من قبائل حاوزتها . انهى كلامهما .

والأخرى تعرف بتاجرارت بناها ملك لمتونة يوسف بن تاشفين فى حدود اثنين وستين وأربعمائة ، بمكان محلته ، ولذلك سميت باسم تاجرارت فانه اسمالمحلة بلسان زناتة .

وابتدأ سورها السيد موسى بن يوســف العسري بن عبد المؤمن بن علي سنة ست وستين وخمسمائة ، وكلمه وحصنه السيد أبو الحسن ابن السيد أبي حفــص بن عبد المؤمن فى حدود احدى وثمانين عند استيلاء أولاد غانية على بجاية ، والجزائر ، والمدية ، لتوقعه الخوف

منهم ثم جلاهم من البلاد السيد أبو زيد بن يوسف العسري بن عبد المؤمن بن علي ، أرسله اليهم أخوه يعقوب المنصور .

وهي الآن أكبر وأشهر من الأولى ، والجامع الأعظم وقصور الملك ونفيس العقار بها ، والناس اليها أميل ، وبها أشد عناية ، ويعمر كلتيهما ناس أخيار أولوا حياء ووفاء بالعهد وعفاف ، ودين ، واقتصاد فى المعاش ، واللباس ، والسكن ، على هدى السلف الصالح رضي الله عنه ، غالب تكسبهم الفلاحة ، وحوك الصوف يتغايون فى عمل أثوابه الرقاق ، فتلقي الكساء أو البرنس عندهم من ثماني أواق ، والاحرام من خمس ، بذلك عرفوا فى القديم والحديث ومن لدنهم يجلب الى الأمصار شرقا وغربا .

ومع ذلك فهم معدن العلماء الأعلام ، والأولياء ، المشاهير نجابة فى الدرس والعبادة ، تشهد بذلك المزارات المحبوبة من الأقطار النائية خارج بلدهم ، فالأخبار المتواترة على لسان الخاص والعام » (5) .

5 – أبو زكرياء يحيى بن خلدون : بغية الرواد فى ذكر الملوك من بني عبد الواد جـ 1 تقديم وتحقيق الدكتور عبد الحميد حاجيات (الجزائر – 1980) ص 85 – 92 .

القســـم الثــاني

آثــار مدينة تلمســان التاريخية

أ) آثــار مدينة تلمسان التاريخية :

تزخر مدينة تلمسان بآثار تاريخية هائلة ماتزال حتى اليوم تحكي عن عظمة هذه المدينة الفـكرية والحضارية والعمرانية ، ومن أهمها :

قلعة المشور التي قاومت صروف الدهر قرونا ، وتتوسط المدينة كالطود الشامخ • أنشأها الموحدون بعد سيطرتهم على المدينة فى القرن الثاني عشر الميلادي وبداخلها دور للسكنى ، ومسجد جامع جميل مايزال حتى اليوم •

والمسجد الأعظم الذي أمر ببنائه الأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين ، وشيد منارته فيما بعد الأمير ياغمراسن مؤسس الدولة الزيانية فى القرن الثالث عشر الميلادي •

ومسجد أبي الحسن بن يخلف التنسي الذي كان يدرس بتلمسان أيام أبي سعيد سنة 1279 هـ وهو اليوم متحف للفن الاسلامي للمدينة والمنطقة •

ومسجد سيدي الحلوي أبي عبد الله الشوذي قاضي اشبيلية سابقا ، الذي لقب بالحلوي عندما استقر بتلمسان،

وقد شيد هذا المسجد أبو عنان المريني عام (754 هـ ـ 1353 م) •

ومسجد ومدرسة الشيخ شعيب أبي مدين الغوث بحي العباد الأثري الذي تبدو منارته من بعيد لكل زائر لمدينة تلمسان ، وقد شيدت المدرسة عام 1374 م وتمثل هي والمسجد ، طرازا جميلا للعمران العربي الاسلامي بالمدينة •

ومسجد أولاد الامام ، وقبر الشيخ ابراهيم الطيار ، ومنارة مسجد أقادير ، وجدار تلمسان ، والحوض الكبير، وجامع وقبة الشيخ ابراهيم المصمودي ، وجامع المشور ، وجامع الشيخ السنوسي، وضريحه ، ومسجد لا لا غربية ، وجامع سيدي بدوم ، وجامع سيدي البناء وجامع لا لا روية ، وجامع باب زيز ، وعدد آخر من القبب تحدث عنها بالتفصيل جورج ووليام مارسي في كتابيهما عن آثار تلمسان (1) •

---

(1) W. Marçais, G. Marçais : Les monuments arabes de Tlemcen, (Paris, 1903), 358 p. et les villes d'arts célèbres. Tlemcen, (Paris, 1950), 104 p.

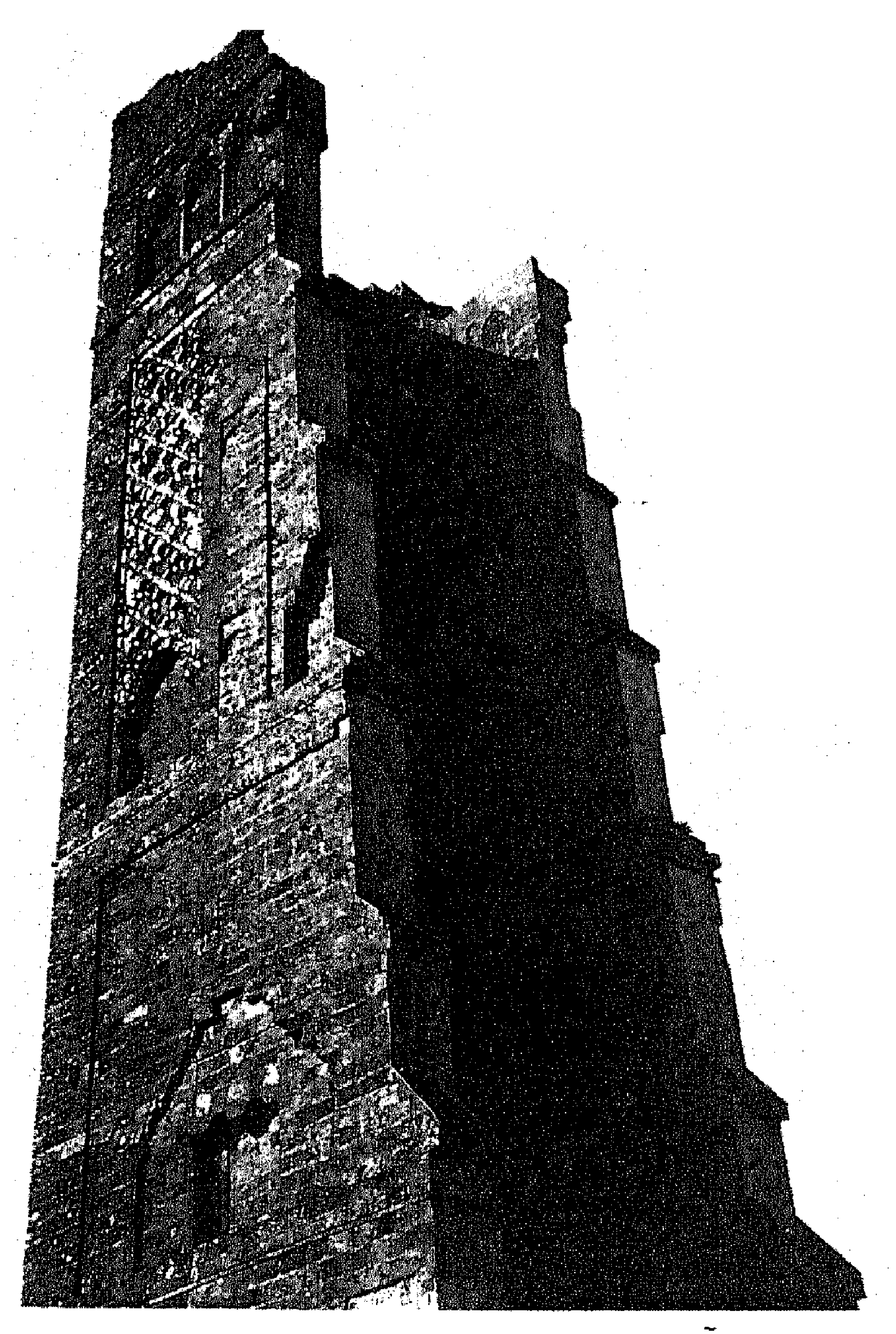
ب) خرائب مدينة المنصورة :

على أن أهم آثار تلمسان التاريخية برزوا ، هي خرائب مدينة المنصورة التي أسسها السلطان يوسف بن يعقوب كمعسكر لقواته التي فرضت الحصار على مدينة تلمسان أكثر من ثماني سنوات . وقصة المنصورة هذه ذات شبه كبير بقصة حصار طراودة الاغريقية الشهير الذي دام عشر سنوات . وهذا ما يستلزم الوقوف عندها قليلا والتعرض لكيفية انشائها .

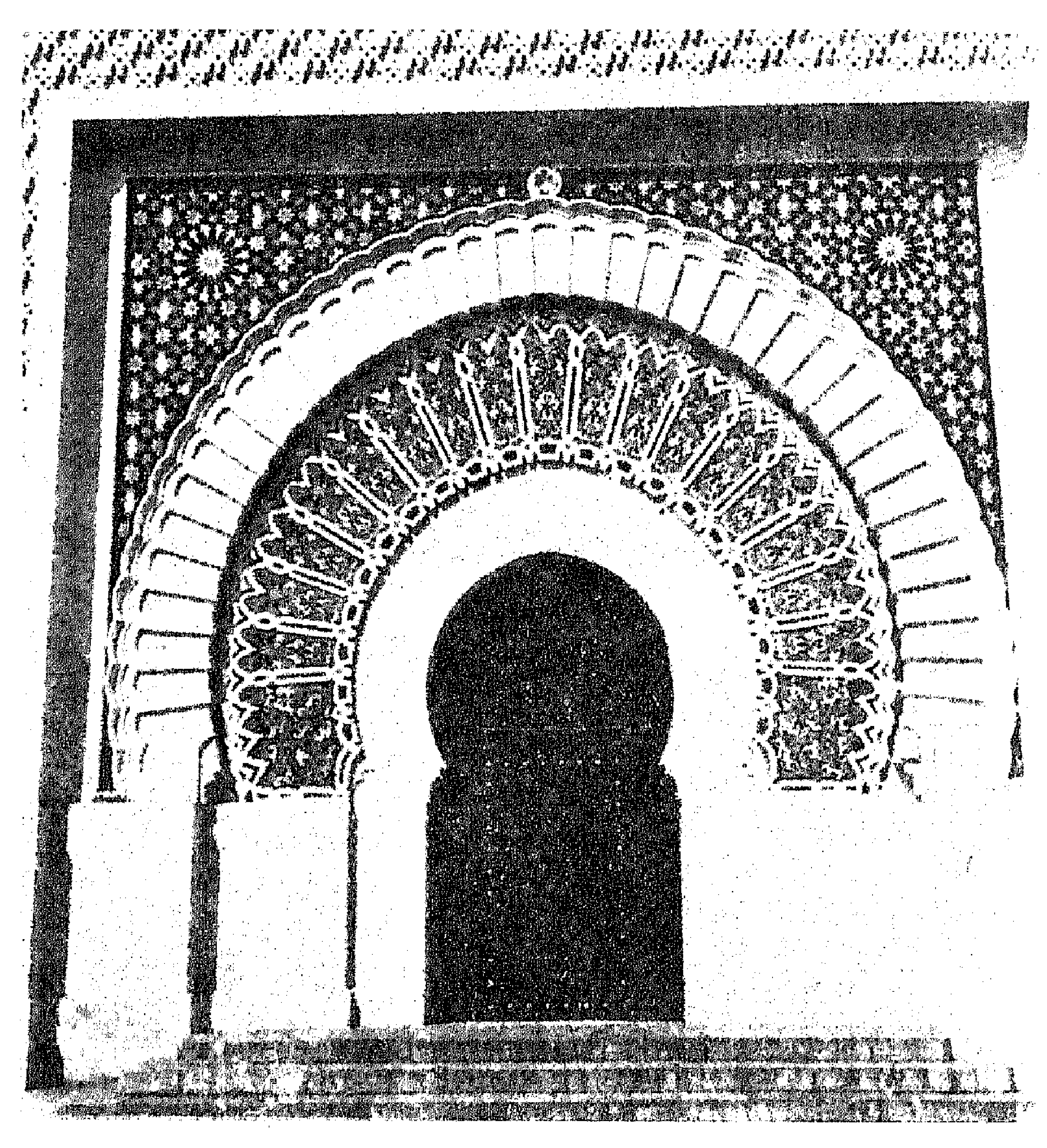
لقد كان السلطان المريني السابق شديد الطمع فى السيطرة على تلمسان واقليمها ، وذلك بسبب الخصومة الشديدة التي كانت بين العرش المريني والعرش الزياني ولكي يحقق يوسف المريني أطماعه أبرم صلحا مع بعض ملوك النصارى بالأندلس ، ومع أمراء بني الأحمر بغرناطة ، وتنازل لهم عن بعض الثغور الأندلسية التي كان يسيطر عليها هناك ، ثم التفت الى منازلة تلمسان الزيانية ، وشن عليها وعلى الاقليم كله ، أربع غارات وحروب فى سنوات (689 هـ ــ 1290 م) و (695 هـ 1296 م) و (696 هـ ــ

1297 م) و (697 هـ 1298 م) ، وأحذت بها تخريبا في العمران ، والمزارع ، واتلافا في المحصولات والحيوانات ولكنه لم يستطع أن يتوصل الى بغيته في احتلال تلمسان ، لأن عثمان بن يا غمراسن كان في كل مرة يبذل الجهد والنفيس مع السكان في مواجهة هذا الغزو المريني ، ولم يفد المرينيين احتلالهم لندرومة ، وتعاون بعض السكان معهم كالمطغريين وبني سلامة .

وتتيجة لصمود تلمسان وتصديها للمقاومة والاستبسال، فكر يوسف بن يعقوب المريني في فرض حصار طويل عليها حتى ترضخ وتستسلم ، ولكي يسهل هذا الحصار ويأتي بنتيجة فكر في انشاء معسكر كبير لقواته تستقر به خلال الحصار ، وتجد كل ما تحتاجه من المؤونـــة ، ولا تضطر للعودة الى المغرب . وفي شعبان عام (698 هـ 1299 م) أرسل السلطان المريني يوسف جيشا جرارا ضد تلمسان ، عسكر بالقرب منها وشدد عليها الحصار ، وشرع في نفس الوقت في بناء مدينة سماها « المنصورة » تيمنا بتحقيق الانتصار ، ولكن لم يحقق ذلك ، وأصبح اسم «المنصورة» أولى وأجدر بها كما سنرى . ومما ذكره ابن خلدون عن هذه المدينة قوله : « واستفحل ملك يوسف بن يعقوب بمكانه من حصارها ، واتسعت خطة مدينة المنصورة المشيدة عليها ، ورحل اليها التجار بالبضائع من الآفاق ، واستبحرت في العمران، بما لم تبلغه مدينة ، وخطب الملوك سلمه ووده



قبة جامع المنصورة من آثار بني مرين .



مدخل جامع المنصورة .

ووفدت عليه رسل الموحدين وهداياهم من تونس وبجاية وكذلك أرسل صاحب مصر والشـــام هديته واعتزازه ، واعتز اعتزازا لا كفاء له كما يأتي في أخباره (2) .

ولقد دام حصار المرينيين لتلمسان من المنصورة ثمانية أعوام وثلاثة أشهر ، وصمدت كالطود ، وأصبحت بحق طروادة الجزائر التي لا تقهر على عكس طروادة الاغريق التي قهرت بعد عشر سنوات من الحصار . ان طروادة تلمسان قاومت الغزو ثماني سنين وخرجت منتصرة مظفرة .

ولنفتح المجال لابن خلدون ليحدثنا عما عاناه ســكان تلمسان خلال هذا الحصار الطويل ، فقد قال : « واستمر حصارهم (بنو مرين) أياهم (بنو عبد الواد) الى ثمانية سنين وثلاثة أشهر من يوم نزوله ، نالهم فيها من الجهد ما لم ينله أمة من الأمم ، واضطروا الى أكل الجيــف والقطوط والفئران ، حتى زعموا أنهم أكلوا فيها أشلاء الموتى من الناس ، وخربوا السقف للوقود ، وغلت أسعار الأقوات والحبوب وسائر المرافق بما تجاوز حدود العوائد وعجز وجدهم عنه . فكان ثمن مكيال القمح الذي يسمونه البر شالة ويتبايعون به ، مقداره أثنا عشر رطلا ونصف مثقالين ونصف من الذهب العين وثمن الشخص الواحد

2 — كتاب العبر جـ 7 . ص 219 — 222 .

من البقر ستين مثقالا ، ومن الضأن سبعة مثاقيل ونصفا ، وأثمان اللحم من الجيف الرطل من لحم البغال والحمير بثمن المثقال ، ومن الخيل بعشرة دراهم صغار من سكتهم وتكون عشر المثقال ، والرطل من الجلد البقري ميتة أو مذكي بثلاثين درهما • والهر الداجن بمثقال ونصف ، والكلب بمثله، والفأر بعشرة دراهم والحية بمثله والدجاجة بثلاثين درهما والبيض واحدة بستة دراهم ، والعصافير كذلك ، والأوقية من الزيت باثني عشر درهما ، ومن السمن بمثلها ، ومن الشحم بعشرين ، ومن الفول بمثلها ، ومن الملح بعشرة ، ومن الحطب كذلك ، والرطل الواحد من الكرنب بثلاثة أثمان المثقال ، ومن الخس بعشرين درهما ومن اللفت بخمسة عشر درهما والواحدة من القثاء والفقوس بأربعين درهما والخيار بثلاثة أثمان الدينار ، والبطيخ بثلاثين درهما والحبة من التين والاجاص بدرهمين ، واستهلك الناس أموالهم وموجوداتهم ، وضاقت أحوالهم ، وهلك الجند من حامية ياغمراسن وقبيلتهم ، وأشرفوا على الهلاك فاعتزموا على الالقاء باليد والخروج بهم لاستماتته فكيف الله لهم الصنيع الغريب ونفس محنتهم بهلك السلطان يوسف بن يعقوب على يد خصى من العبيد فاستخلطته بعض النزعات المملوكية فاعتمده فى كسر بيته ومخدع نومه وطعنه بخنجر قطع أمعاء ، وأدرك فسيق الى وزارته فمزقه أشلاء ولم يبق

شيء من بقايا عهدهم ، وذهب الله العناء من آل زيـان ومقومهم وساكني مدينتهم كأنما نشروا من أجداث وكتبوا لها في سكتهم (ما أقرب فرج الله) استغرابا لحادثتها » (3) .

هذه هي قصة انشاء المنصورة التي لم يبـق منها الا الخرائب ولـكن مدينة تلمسان تقف شامخة بأمجـادها وعصاميتها ، وبطولات أجيالها وأصالة حضارتها الفنيـة والفكرية والتاريخية والحضارية .

---

3 ـ عبد الرحمن بن خلدون : كتاب العبر ج 7 . ط بولاق (القاهرة 1284 هـ) ص 95 ـ 97 و 233 .

ج) المراحـــل والأدوار التاريخية للدولــة الزيــانية :

عمرت الدولة الزيانية أكثر من ثلاثة قرون (1236 م ــ 1554 م) ولكن حياتها كلها كانت صراعا مستميتا ، وطويلا ، ضد عدة قوى متصارعة متطاحنة عليها تتمثل فى الأمور التالية :

1 ــ صراع الأمراء فيما بينهم على العرش والسلطة .

2 ــ تدخل الدولة المرينية من المغرب الأقصى والدولة الحفصية من الشرق بتونس فى شـــؤون الدولة الزيانية الداخلية فى محاولة للسيطرة عليها وازالتها من الوجود .

3 ــ تدخل الأسبان تبعا لذلك ، ولنفس الهدف ، بعد أن ضعف شأن هذه الامارات الثلاثة جميعا بالمغرب العربي كلـــه .

4 ــ تدخل الأتراك فى النهاية، انقاذا لوجودهم بالجزائر، ولقطع خط الرجعة على الاسبان وتصفية وجودهم بسواحل المغرب العربي ، وهم الذين وضعوا نهاية لدولة بني عبد

الواد ولأطماع الاسبان فى السيطرة على الجزائر والشمال الافريقي الغربي كما وضعوا نهاية أيضا لدولة بني حفص بتونس (4) •

وكانت هذه الدولة فى بداية عهدها يطلق عليها اسم : (دولة بني عبد الواد) : « ثم لما تولى أمرها السلطان أبو حمو موسى الأخير عام (1359 م) وأحياها بعد اندثارها ، أطلق عليها اسم الدولة الزيانية » وتاريخ هذه الدولة شائك ومشحون بالحوادث والاضطرابات ، ولكن يمكن فى ستة أدوار رئيسية حسبما نوضحه فيما يلي :

---

4 – يحيى بوعزيز : الموجز فى تاريخ الجزائر • (الجزائر – 1965) ص 125 – 131 •

أصـــل بني عبد الــواد

أولا ـــ دور النشأة والتبعية للحفصيين :

ان بني عبدالواد فرع من فروع الطبقة الثانية من قبيلة زناتة الكبيرة استقروا منذ أزمنـــة طويلة بالمنطقة الغربية للجزائر ، وتمتد مواطنهم من تاهرت الى نهر ملوية ، وهم من ولد باديس بن محمد اخوة بني توجين ، ومصاب ، وزردال ، وبني راشد، ويرتبط المرينيون معهم بالمصاهرة . وهنــاك من حــاول أن يربط نسب الزيانيين بالأدارسة العلويين وينفي نسبهم البربري، ولكن ذلك زعما لا مستند له كما ذكر ابن خلدون ، وحتى ياغمراسن نفسه عندما أبلغ له هذا الأمر ، لم يستسغه وكان جوابه : ان كان هذا صحيحا فينفعنا عند الله وأما الدنيا فانما نلناها بسيوفنا . ومنذ القدم كان لبني عبد الواد مشاكل وصراعات مع القبائل الأخرى مثل بني مرين ، ولذلك متنوا صلاتهم ببني بلومي وبني وامانو ، بوادي مينة وحوض غيليزان .

وينقسم بنو عبد الواد الى عــدة بطون ذكر منها ابن خلدون ستة هي : بنو ياتكين وبنو أولو ، وبنو ورهط ،

ونصوحة ، وبنو تومرت ، وبنو القاسم ، والفرع الأخير هو الذي كانت اليه الرئاسة خلال عهد الموحدين وهو الذي حاول البعض أن يرفع نسبه الى الأدارسة العلويين ، ويتألف من عدة بطون مثل : بني يكمثين ، وعبد الحق بن منغفاد ، وبني مطهر ، وبني علي •

وقد أخلص هذا الفرع الطاعة للموحدين عندما قامت دولتهم ، فأقطعوهم بلاد بني وامانو ، وحصلت بينهم مشاكل وحروب داخلية أدت الى فرار بعض الفروع الى تونس على عهد أبي زكرياء الحفصي • وفى عام (1230م ـ 627 هـ) ، برز جابر بن يوسف بن محمد كزعيم لبني عبد الواد ، فى حين بدأ نجم الدولة الموحدية ينهار وأخذ الثائر الميورقي يحيى ابن غانية يطرق أبواب حواضر المغرب الكبرى بعد أن سيطر على طرابلس وقابس ، وأحدث فيها تدميرا وتخريبا من أجل احياء دولة المرابطين المنقرضة ، كما تسبب بحركته فى تشويش الرأي العام بربوع المغرب العربي كله ، واستهوته مدينة تلمسان واقليمها فزحف عليها ، ولكن جابر بن يوسف تصدى له بجموعه ، وانتصر عليه وشتت شمله ، فأعجب به الخليفة الموحدي ، المأمون وكتب له البيعة على تلمسان وسائر قبائل زناتة تكريما له فاضطلع بالأمر ، وكان ذلك بداية

لقيام دولة بني عبد الواد التي تسلم قيادتها بعده الأمير الشاب ياغمراسن (5) .

ظهور يغمراسن وقيام دولة بني عبد الواد :

في عام 1236 عهد الخليفة الموحدي الرشيد بولاية تلمسان واقليمها الى الأمير الشاب ياغمراسن ، فكان ذلك كما قال ابن خلدون ، سلما الى الملك الذي أورثه الى بنيه سائر الأيام ، وكان ياغمراسن بن زياد بن ثابت بن محمد من أشد بني عبد الواد بأسا وأعظمهم في النفوس مهابة واجلالا ، وأعرفهم بمصالح قومه ، وأقواهم ، اشتهر بحصافة الرأي ، وسداد التدبير وقوة العزيمة معظما عند الخاصة والعامة ، يرجعون اليه كل الأمور عندما تداهمهم النوازل والنوائب والعوادي .

وكان مايزال يافعا شابا عندما بويع بالامارة عام (1236) بعد مقتل أخيه أبي عزة زكرار بن زيان بن ثابت، فاضطلع بالأمر في عزم وقوة وأخضع الى سلطنته كل اللذين كانوا قد خرجوا عن طاعة أخيه ، وأحسن السيرة في الناس تدبيرا وسياسة ، واعتنى بتنظيم قواته العسكرية ، وتوفير

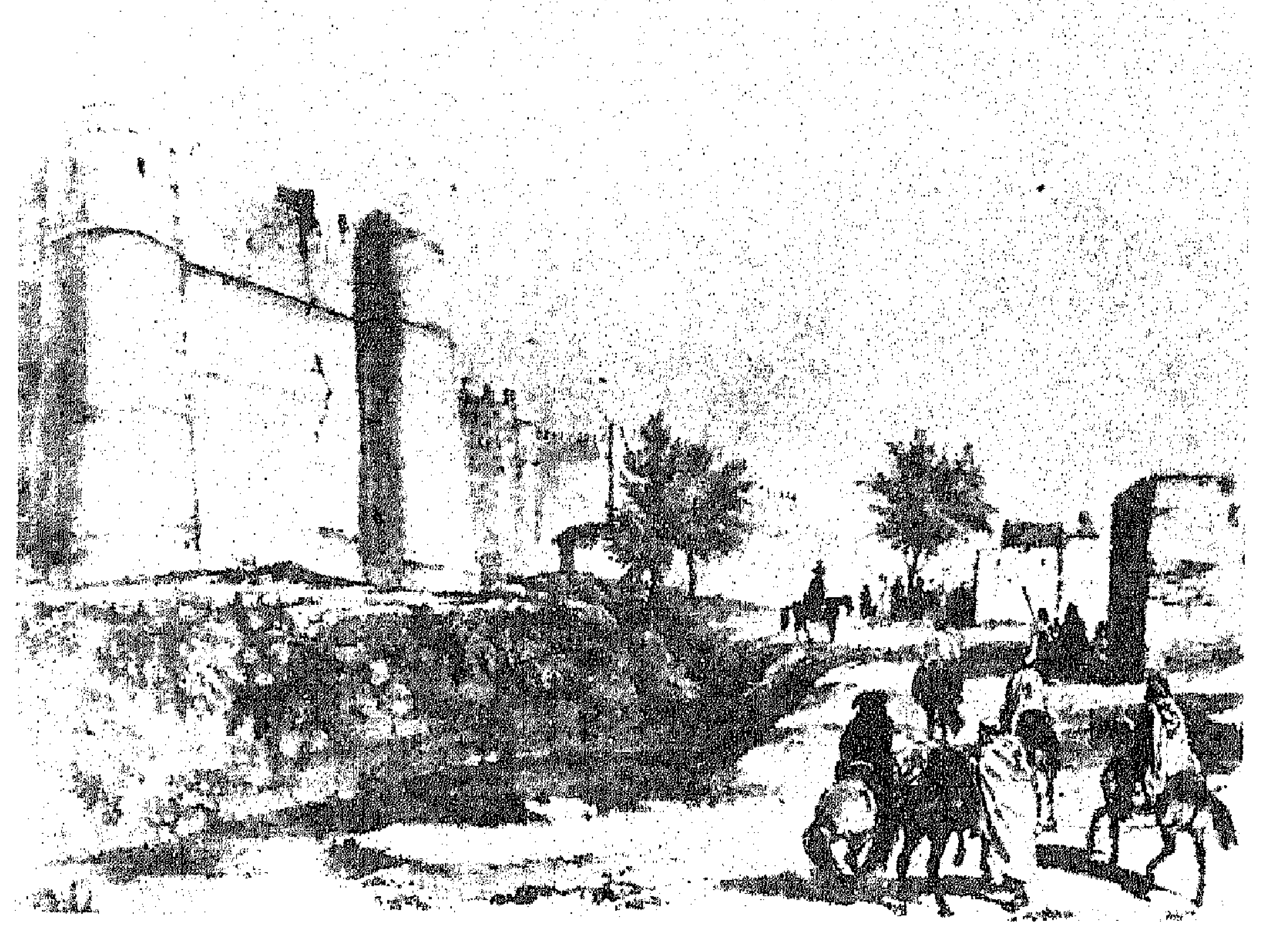
---

5 – العبر ج 7 ص 77 .

الأسلحة والذخيرة لها حتى تستطيع القيام بواجبها الدفاعي على البلاد ، واستحدث مجلسا وزاريا ، وكتبه ليساعدوه على تسيير شؤون الامارة ، واتخذ لنفسه مظاهر الملك ، وألغى سيطرة الموحدين الفعلية ولم يبق لهم سوى عادة ندعوة للخليفة الحسن السعيد المعتصم ، على المنابر أيام لجمع والأعياد •

ومما يدل على مكانة يغمراسن ، وفود عدد من رجالات الأندلس المشهورين الى بلاطه بتلمسان للاستقرار بها وعلى رأسهم الكاتب والشاعر البليغ أبو بكر بن خطاب الذي أصبح كاتبا لياغمراسن يتولى تحرير رسائله الى كل الجهات خاصة تونس والمغرب والأندلس ، وذكر عنه ابن خلدون بأن رسائله ذات شهرة فى بلاطات الامارات الاسلامية •

وهكذا بدأ ياغمراسن عهده ، وقد شق الطريق لدولته وسط الأشواك والحفر ، ولم يكن الأمر سهلا وبسيطا كما كان يتوقع ، لأن أوضاع المغرب العربي آنذاك كانت معقدة • ذلك أن دولة الموحدين دخلت فى طور الانهيار والزوال وأصبح سقوطها مسألة وقت فقط ، وفى نفس الوقت برزت زعامة بني حفص بتونس وزعامة بني مرين بالمغرب الأقصى ، والكل يدعي لنفسه أحقية وراثة الموحدين ووجد ياغمراسن الزياني نفسه وامارته بين شقي



تلمسان في عام 1830 .



جامع سيدي بلحسن ، أصبح متحفا بمدينة تلمسان .

الرحا فماذا يفعل وكيف يتصرف • أخذ يعد العدة للطواري وكان الحفصيون أول الأخطار التي واجهها • فقد سعى الخليفة الموحدي لتوثيق الصلة بياغمراسن ، حتى يساعده ضد بني مرين الثائرين عليه ، فاستشعر الأمير الحفصي أبو زكريا يحيى الأول خطورة هذه الصلة عــلى امارته بتونس ، فقام بغزو تلمسان عام 1242 ليؤدب ياغمراسن الذي اضطر أن يعترف بالسيادة الحفصية حتى يحول دون انهيار امارته ، ورضي أن يدفع لتونس مبالغ مالية سنوية •

ومن هنا بدأت السيادة الحفصية على تلمسان وبني عبد الواد •

وعندما حاول الموحدون مواجهة هذا الوضع الجديد فشلوا ، وانهزم جيشهم الذي قاده الخليفة الحسن السعيد فى معركة تامزردكت قرب وجدة عام 1247 ، وفى العام الموالي قتل الحسن السعيد نفسه على يد بني عبد الواد الذين استولوا على كل أسلابه وذخـائره • ومن هذا التاريخ أصبح الخلاف شديدا بين بني مرين وبني زيان الذين يعتبرون تابعين للامارة الحفصية ببجاية ، وقد ذكر ابن خلدون فى هذا الصدد قوله : (كانت الدعوة الحفصية بافريقيا) (يعني تونس) قد انقسمت بين أعياصهم فى تونس وبجاية وأعمالها ، وكان التخم بينهما بلد عجيسة ووشتاتة وكان الخليفة بتونس الأمير أبو حفص زكرياء

الأول ومنهم ، وله الشفوف على صاحب بجاية والثغور الغربية بالحضرة • وفى عهده بايع بنو زيان ، وأصبحوا يدعون له على منابرهم باسمه • وكانت لهم مع الأمير أبي زكرياء الأوسط صاحب بجاية وصلة لمكان الصهر بينهم وبينه • ويعني بذلك المصاهرة التي تمت بين الأمير عثمان بن يغمراسن والأمير الحفصي صاحب بجاية الذي أعطى بنته الى الأول على عهد ياغمراسن •

ورغم الوحشة التي حصلت عندما حاول الأمير عثمان أن يغزو بجاية الا أنه سرعان ماعادت المياه الى مجاريها ، واستمر بنو زيان تابعين للحفصيين الى أن غزا السلطان المريني يوسف بن يعقوب تلمسان عام 1299 وفرض عليها ذلك الحصار الطويل المشهور وأسس مدينـــة المنصورة كمعسكر للجيش ، فاستعان عندئذ عثمان بن يغمراسن بأمير بجاية الحفصي الذي قدم نجدة كبيرة لبني عبد الواد التقت بالقوات المر ينية فى جبل الزاب ووأقعت بها هزيمة كبيرة فى (معركة مرسى الرؤوس) لكثير ما تساقط خلالها من رؤوس العباد (6) •

وهذه الحادثة زادت فى استحكام الخلاف والمنافسة بين يوسف المريني، وصاحب بجاية الحفصيأبي زكرياء الأوسط

6 ـ العبر ج 7 ص 79 ـ 97 •

الذي كان على خلاف مع صاحب عرش تونس الحفصي ولذلك استغل أبو عصيدة بن الواثق الحفصي سلطان تونس الفرصة ، وحاول أن يحكم صلاته بالسلطان المريني ويتعاون معه على اسقاط عرش تلمسان ، وقطع حبل التبعية التي تربط عرش تلمسان بعرش تونس الحفصي ، وبذلك ينتهي الدور الأول من تاريخ هذه الدولة ويتلوه عهد السيطرة المرينية على تلمسان .

ثانيا ـ دور الاستقلال عن الحفصيين والخضوع للمرينيين

تتمثل أحداث هذا الدور فى محاولة بني مرين اخضاع تلمسان اليهم ، وسعي وحرص أمراء بني عبد الواد على المحافظة على استقلالهم . ولقد كان قطع الدعوة الحفصية على منابر تلمسان خطوة أخرى فى سبيل ابراز كيان دولة بني عبد الواد التي جاهد ياغمراسن طويلا من أجل تحقيقه، وجاء الأمير أبو حمو موسى بن عثمان (1308 — 1318) ، ليدعم هذا الكيان وهذه الشخصية المستقلة للامارة بما أوتيه من شخصية وعزيمة ، وارادة قوية ، حددها ابن خلدون بقوله عنه : « وكان صارما يقظا حازما ، داهية قوي الشكيمة ، صعب العريكة ، شرس الأخلاق مفرط

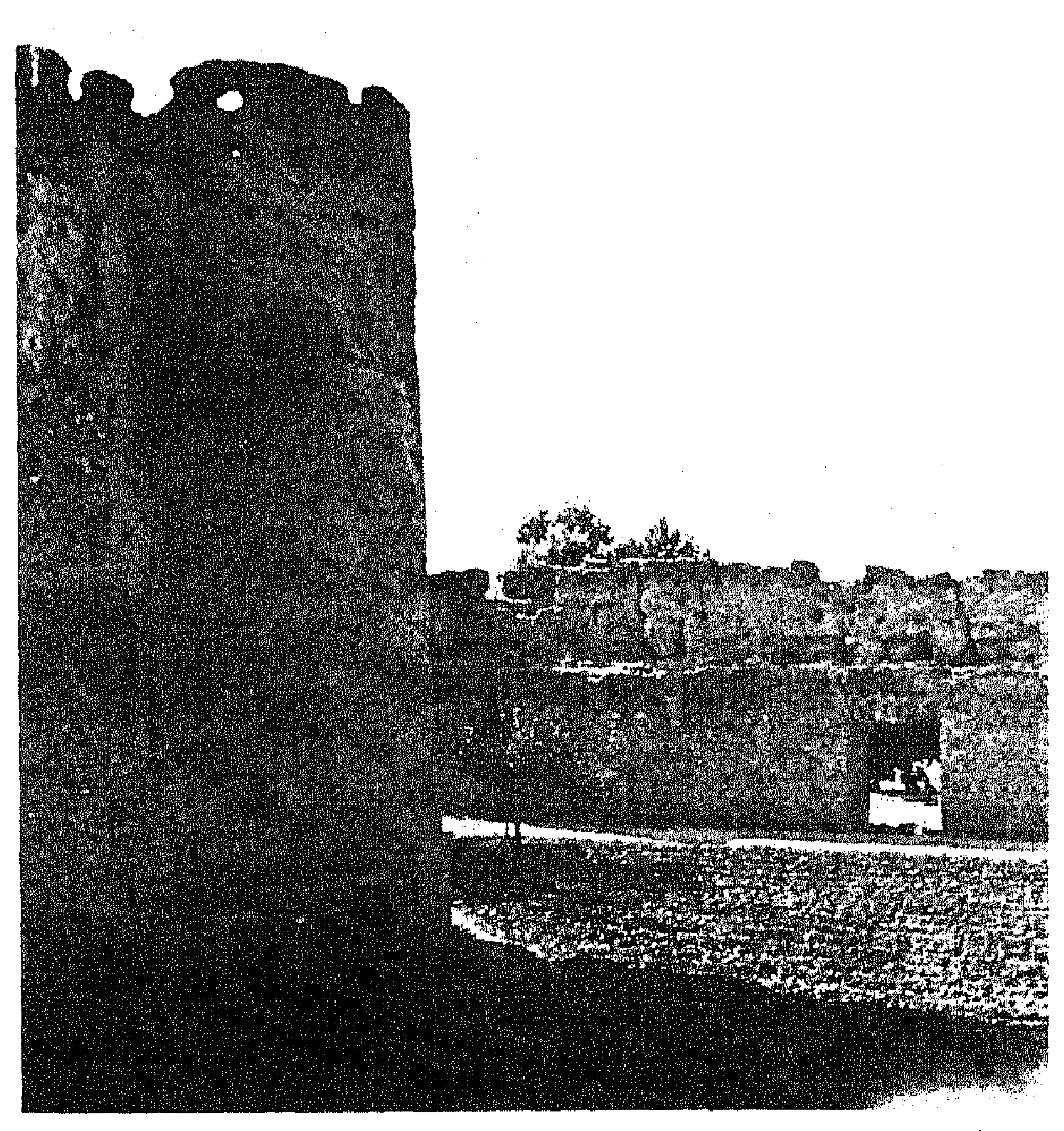
الدهاء ، والحدة ، وهو أول ملوك زنــاتة الذي رتب مراسم الملك : وهذب قواعده ، وأرهف فى ذلك لأهل ملكه حده وقلب لهم مجن بأسه حتى ذلوا لعز ملكه وتأدبوا بآداب السلطان » (7) .

افتتح أبو حمو عهده بابرام الصلح وتحقيق السلم مع أمراء بني مرين تأمينا لظهره فأوفد كبــراء وزارته الى السلطان أبي ثابت حيث أمضوا معه صلحا حسبما كان يريد ، ثم اتجه الى النواحي الشرقية من تلمسان ، فأخضع بني توجين ومغراوة الثائريين ، وقلم أظافر زعمائهم الذين كانوا على رأس هذه الحركات ، أمثال محمد بن عطية الأصم فى نواحي الونشريس ، وراشد بن محمد فى الشلف، وغزا بلاد الونشريس ، وعين من قبله هناك ولاة أمثال مسامح ، ويوسف بن حيون الهواري . ومد سيطرته بعد ذلك الى متيجة ، ومدينة الجزائر نفسها التي سلمها له أميرها ابن علان عام 1321 بعد أن استبد بها حوالي أربعة عشر عاما ، فأخذه الى تلمسان حتى توفي ، ثم سيطر على مدينة دللس ، وأسس مدينة أزفون على الساحل ، ومد نفوذه الى اقليم الزاب بالصحراء الشرقية . وبذلك تقلص نفوذ الحفصيين على كثير من جهــات الجزائر الشرقية ، فى حين توسع نفوذ بني عبد الواد .

---

7 ــ العبر . جـ 7 . ص 98 ــ 99 .

وفى الوقت الذي كان أمراء بني عبد الـواد يركزون نفوذهم ، ويوسعون سيطرتهم الى هذه الجهـات ، كان سلطان المغرب الأقصى أبو سعيد عثمـان بن يعقوب بن عبد الحق ، يبيت الشر ويتأهب للعدوان ضد تلمسان ، وفعلا قاد حملة عسكرية اليها عبر ممر تازة ووجدة ، ونزل فى ضواحيها ولكنه فشل فى اقتحـامها ، واضطر الى الانسحاب ، فانتهز أبو حمو هذه الفرصة وأخذ يصفي نفوذ المرينيين ، بالمغرب الأوسط ، فقضى على امارة الثعالبة بمتيجة المشايعة لهم ، وطارد أمراءها الى جهات كثيرة فى حوض الشلف ، وقام ببناء قصره المعروف باسم « قصر عمي موسى » ، الذي تحول الى قرية بهذا الاسم جنوب شرق واد رهيو ، ولم يكتف بهذا فلاحق الثائر المغراوي راشد بن محمد الى بلاد القبائل ، وقام بتشييد قرية أقبو على الضفة اليسرى لواد الصومام وواد الساحل ، بين تازمالت وبجاية على السفوح الشرقية لجبل أكفادو بجرجرة . على أن أبا حمو سرعان ما تآمر عليه المقربون منه وعلى رأسهم ابنه أبو تاشفين بسبب صرامته وشـدة بأسه ، فقتلوه في جوان 1318 م . وخلفه ابنه أبو تاشفين ، وكان ذلك بداية للانقراض الأول لدولة بني عبد الواد . فقد عقد أبو تاشفين معاهدة صلح مـع السلطان المريني أبي سعيد ، ولكن سرعان ما استوحش الأمر بينهما ، وغزا أبو تاشفين تازة واكتسح مزارعها وحقـولها ورد عليه



من آثار المنصورة .

السلطان المريني أبو الحسن بغزو مواني تلمسان الساحلية بأسطوله ، والسيطرة على عدد من المدن مثل ندرومه ، وهنين ، ووهران ، وجبال تسالة ، وتنس ، والجزائر الشرقية ، ثم عاد الى المنصورة عام 1335 ، وحاصر تلمسان واحتلها فى أبريل عام 1337 ، وقتل الأمير أبا تاشفين وعددا من بني عبد الواد وقضى على دولتهم وأخضع تلمسان للمرينيين بالمغرب الأقصى (8) •

وكان من ضمن أسباب هذا الغزو المريني هذه المرة ، قيام أبي حمو بغزو مدينة قسنطينة والسيطرة على بجاية عام 1328 ، ورفض أبي تاشفين رجاء الحفصيين الذين وسطوا بني مرين فى ذلك ، وفى اخلاء ما احتلوه بالجزائر الشرقية وخاصة بجاية • على أن بني مرين فى الحقيقة والواقع كانوا لا يضيعون أية فرصة تسنح لهم ، للتدخل فى شؤون تلمسان حتى يجدوا مبررا لاحتلالها تمشيا مع أطماعهم القديمة فى هذه المنطقة • وبهذا الغزو اختفت دولة بني عبد الواد فترة من الزمن ، وهو الاختفاء الأول الذي ستتلوه اختفاءات أخرى •

---

8 ـ العبر • ج 7 • ص 99 ـ 106 •

ثالثا ـ دور البعث الثاني للدولة ، والتدخل المريني ضدها

يتمثل هذا الدور الثالث فى احياء دولة بني عبد الواد من جديد بعد اندثارها وفى تكرار التدخل المريني ضدها . فلقد بقي المرينيون يسيطرون على تلمسان منذ أن احتلوها عام 1337 م الى أن نكب سلطانهم أبو الحسن قرب القيروان على يد عرب بني هلال ، وبني سليم عام 1384 . بعد أن تخلى عنه معظم جيشه الذي حاول به أن يغزو تونس ، فاغتنم بنو عبد الواد الفرصة وسعوا لاحياء دولتهم وبعثها من جديد ، فبايعوا أبا سعيد عثمان بن عبد الرحمن بن يغمراسن وتصالحوا مع المغراويين وبني توجين ، ثم أسرعوا فى السير الى مدينة تلمسان واقتحموها في سبتمبر 1348 ، وسلم لهم عامل المرينيين أبو فرار ، وعين أبو سعيد عثمان ، أخاه أبا ثابت مسؤولا على الشؤون العسكرية وأمور الحرب ، ثم نهض لمقاومة الخصوم والمنشقين ، وأعاد سيطرة بني عبد الواد على ندرومة ووهران ، ومازونة ، وتنس ، والمدية ، وعاصمة المغراويين مليانة وبرشك ، وشرشال ، والجزائر ، ودللس، وجرت معارك طاحنة فى حوض الشلف والونشريس . ضد المغراويين الثائرين .

وقد استطاع أبو ثابت أن يلحق الهزيمة بالسلطان المريني أبي الحسن فى مدينة الجزائر ، بينما كان عائدا من تونس، وأرغمه على الانسحاب مخذولا الى المغرب الأقصى ليواجه هناك صراعا وحربا ضد ابنه أبي عنان الطموح الى الملك ، والذي ثار عليه فى غيابه واستحوذ على السلطة وقد انتهى الأمر بقتله وسيطرة ابنه أبي عنان على العرش .

وكان أبو عنان هذا صاحب أطماع مثل أبيه فى اقليم تلمسان فأخذ يستعد لغزوها ولكن الأمير أبا سعيد استعد للأمر وسبق الحوادث فخرج بقواته الى وجدة لملاقاة قوات بني مرين على أرض المغرب ، وخاض الطرفان معركة (واد القصب) الكبيرة بسهل انقاد فى شهر جوان 1352 م ، وكانت الغلبة فيها لبني مرين الذين تمكنوا من أسر أمير تلمسان وقتله ، واحتلال عاصمة بني عبد الواد وتتبع فلول الهاربين منهم الى مختلف المناطق ، ولم يكتفوا بها فنقلوا ميدان الحرب والصراع الى حوض الشلف ، وسهـول متيجة . وعندما عجز أبو ثابت على مواجهتهم ، انسحب الى الوراء شرقا ، وذهب متنكرا الى مدينة الجزائر بصحبة عدد من أفراد بني عبد الواد عـلى رأسهم ابن أخيه ، أبو زيان محمد بن أبي سعيد ، وموسى بن يوسف ، ووزيرهم يحيى بن داود .

ومن الجزائر اتجهوا الى بجاية ، فاعترضهم فى الطريق بعض الناس وسلبوا ما عندهم من أمتعة وزاد ، ثم وقعوا

فى أيدي أنصار بني مرين الذين اقتادوهم الى بجـاية وسلموهم الى الأمير المريني أبي عنـان الذي كان يوجد هناك آنذاك فاصطحبهم معه الى تلمسان ، وتفذ القتل في أبي ثابت على غرار أخيه ، وبذلك اندثرت دولة بني عبد الواد للمرة الثانية وعادت اليها سلطة بني مرين مدة من الزمن ، حتى أعاد الكرة أبو حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن ، وأحياها من جديد (9) ٠

رابعا ـ دور البعث الثالث لدولة بني عبد الواد الزيانية

يتمثل هذا الدور الرابع لدولة بني عبد الواد فى محاولة طرد السيطرة المرينية وبعث الدولة من جديد ، وقد دامت السيطرة المرينية على تلمسان سبع سنوات الى أن تمكن أبو حمو موسى الأخير (الثاني) من طردها عام (1359م) وكان والد أبي حمو هذا كما يقول ابن خلدون ، متكاسلا عن طلب الظهور ، ومتجافيا عن التهالك فى طلب العـز جانحا الى السكون ومذاهب أهل الخير ، حتى اذا عصفت بدولتهم رياح بني مرين وتغلب السلطان أبو عنان عليهم وابتزهم ما كان بيدهم من الملك ، وخلص ابنه أبو حمو

9 ـ العبر ٠ ج 7 ٠ ص 107 ـ 121 و 288 ـ 289 ٠

موسى مع عمه أبي ثابت الى الشرق ، وقذفت النوى ، بيوسف مع أشراف قومه الى المغرب ، فاستقر به ولما قبض على أبي ثابت فى وطن بجاية أغفل أمر أبي حمو من بينهم ، ونبت عنه العيون فنجا الى تونس ، ونزل بها على الجانب ابن تافراكين ، فأكرم نزله وأجله بمكان أعياض الملك من مجلس سلطانه ، ووفر جرايته ، وتظلم معه آخرون من أجل قومه ، وأوعز السلطان أبو عنان اليه ليسلمهم له فأبى ذلك ورفض اخلاف وعده وحمايته ، وكان ذلك من الحوافز التي دفعت أبا عنان المريني للقيام ، بغزو تونس ، ومنابذة العرب من رياح وسليم لعهده .

وقد اجتمع عرب الذواودة من رياح عام 1359 ، وطلبوا من الحاجب ابن تافراكين أن يساعد أبا حمو موسى على استعادة عرش آبائه بتلمسان ووعده بأن يكون معه عرب زغبة فى زحفه ويؤازره ويظاهروه ليستعيد تلمسان ، ويشغل أبا عنان عن محاولة غزو تونس ، فصادف هذا العرض هوى لدى أمير زغبة الصغير بن عامر ، وجند نفسه وقومه ، وسار مع أبي حمو عدد كبير من الأنصار والأخلاف عبر جبال عياض ، والمسيلة ، وزغبة ، والزاب ، وواد يسر ، ومضيق وهران .

وفى الطريق علمت هذه الجموع بموت أبي عنان ، فزادهم ذلك تحفزا وشدة عزم فأخذوا السير نحو تلمسان

واقتحموها فى يوم 7 فيفري 1359 ، وأعاد أبو حمــو تجديد دولة أجداده وآبائه للمرة الثالثة على أنقاض السلطة المرينية الراحلة ، وأطلق عليها اسم : « الدولة الزيانية » بعد أن كانت تسمى بامارة بني عبد الواد ، وحاول أن يعيد لها شبابها وحيويتها ، كما كانت فى عهد ياغمراسن • ويمتاز هو بحبه للعلم واالعلماء ، وقول الشعر ، وتأليف الكتب مثل كتاب (واسطة السلوك فى سياسة الملوك) (10)•

ومن شعره القصيدة الطويلة التي أنشدها بعد عودته الى تلمسان يحكي فيها ما عاناه من حياة التشرد، وما قاساه فى سبيل استعادة عاصمة أجداده ، واحياء دولتهم ومطلعها :

جرت ادمعي بين الرســـوم الطواسم
لـمـا شطحتها من هبـــوب الرواكـم

وقفت بهــــا مستفهمـا بخطابهــا
واي خــطاب للصـــلاد الصـــلادم

---

10 ـ لقد قام الدكتور عبد الحميد حاجيات بتحقيق هذه الدراسة ونشرها ضمن دراسته عن أبي حمو وآثاره ، بعنوان : أبو حمو موسى الثاني حياته وآثاره (الجزائر ـ 1974 • 397 ص • كما قامت الدكتوراه وداد القاضي اللبنانية بوضع دراسة عنه قدمتها فى ملتقى الفكر الاسلامي التاسع بمدينة تلمسان خلال شهر جويلية 1975 ، ونشرتها مجلة الاصالة بعد ذلك•

ومنهـــا :

وجبت الفيافي بلـــدة بعـد بلـــدة
وطوعت فيهــا كل بـــاغ وباغـــم

وجئت لأرض الزاب تذرف أدمـــعي
لتـذكار أطـــلال الربـــوع الطواسم

اهتم أبو حمو بتدعيم سلطته وامارته وبالقضاء على نفوذ بني مرين فى كل أنحاء المغرب الأوسط ، فافتك وهران منهم عام 1361 ، ومدينة الجزائر فى العام الموالي ، وبلاد القبائل فى العام الذي تلاه •

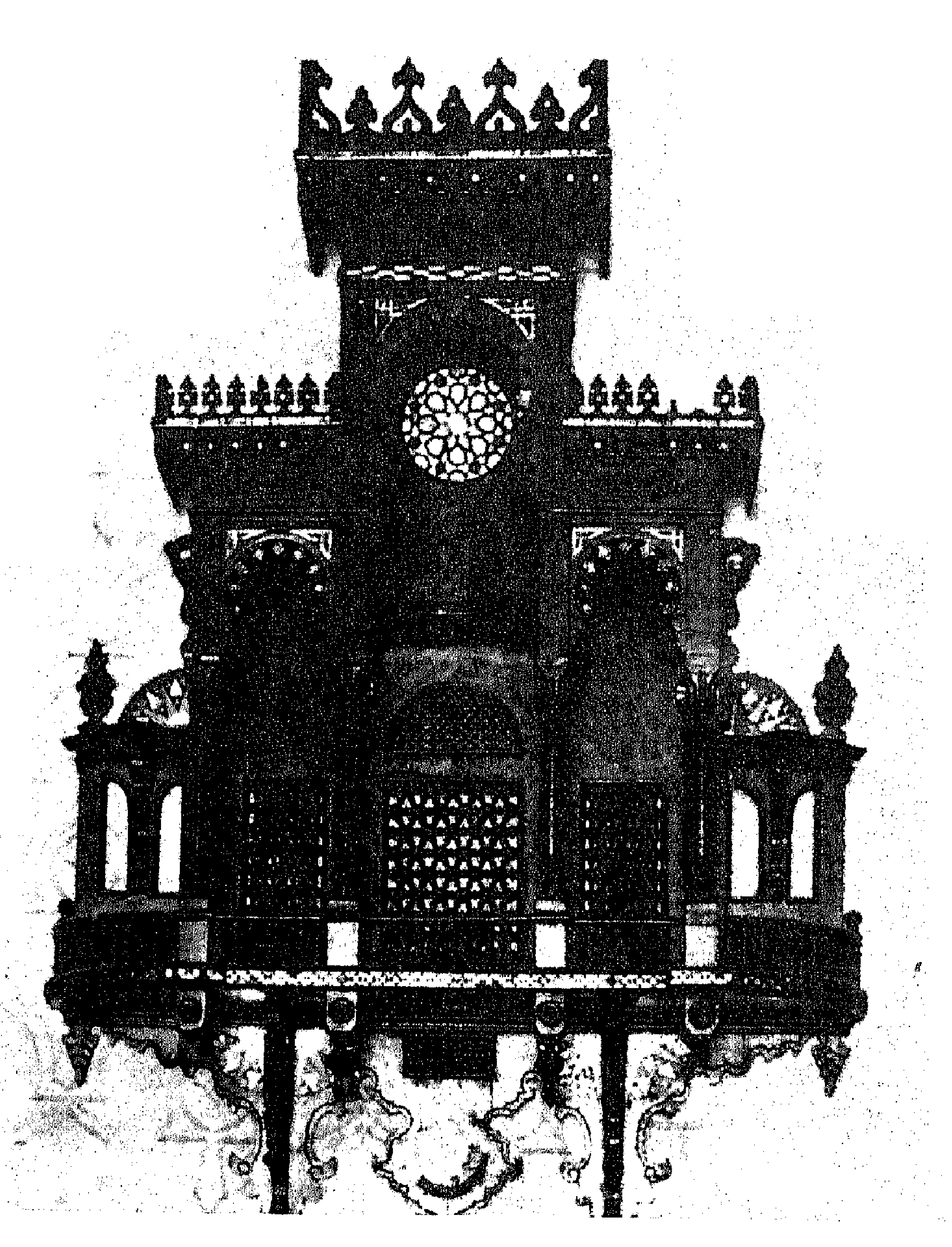
على أن بني مرين ما انفكوا يثيرون ضد أمارته الزيانية فدفعوا أبي زيان ابن أبي سعيد عثمان للثورة ضد أبي حمو ، فاتجه من المغرب الى تلمسان ، وتسبب فى اثارة حروب ومعارك طاحنة كانت السبب فى اضعاف الامارة وارهاق السكان فى مشاكل واثارة حــروب أهلية بين الأميرين ، وأنصارهما ، اتخذهما القراصنة النصارى فرصة وذريعة للاغارة على موانى البلاد الساحلية واحتـــراض السفن الجزائـــرية والصديقة لها ، ومن ضمنها سفينـــة أندلسية قادمة الى تلمسان بهدايا وتحف أمير بني الأحمر ، التي اعترضوها واستولوا عليها عام 1366 م •

ولم تنته هذه الحوادث حتى جدد بنو مرين زحفهم على تلمسان مرة أخرى عام 1370 بزعامة السلطان أبي فارس عبد العزيز ، واحتلوها فاضطر أبو حمو وان يغاها لمدة عامين مشردا الى أن توفي أبو فارس في أكتوبر 1372 فعاد من جديد الى عرشه ، ولكن المرينيين أثاروا ضده ابنه أبا تاشفين الذي اعتقله وسجنه بوهران ، ثم فر منها وحاول العودة الى عرشه وخاض حربا ضد ابنه ذهب هو ضحيتها في معركة « بني ورنيد » قرب جبل بني راشد في نوفمبر 1389 ، ولم يستقل أبو تاشفين بالأمر حتى نازعه أخوه أبو زيان حاكم مدينة الجزائر ، ودارت رحى الحرب بينهما طويلا حول تلمسان والمناطق الشرقية لها والصحراء انتهت بمقتل أبي تاشفين وقيام المنتصر المريني باحتلال مدينة تلمسان والمناطق الشرقية لها عام 1393 ، فأزال الدولة الزيانية للمرة الثالثة ، وعادت لعنة المرينيين من جديد على تلمسان وبني زيان (11) .

خامسا ـ دور التدخل الحفصي الثاني :

يتمثل هذا الدور الخامس من تاريخ الدولة الزيانية في بداية مرحلة الضعف ، وعودة الحفصيين مرة أخرى الى

11 ـ العبر . ج 7 . ص 122 ـ 148 .



جامع سيدي بومدين (نقوش) .

التدخل فى شؤونها الداخلية بعد ضعف الامارة المرينية وتداعي الأوضاع الداخلية للامارة الزيانية نفسها ، فلقد أشرنا الى أن الدولة المرينية بعد أن أسقطت الامارة الزيانية للمرة الثالثة عام 1393 م ، أخذت تتلاعب بعش تلمسان ، وصارت تعزل ذا لتولي ذاك حسبما تمليها عليها مصلحتها ، وتغزو أحيانا مركز الامارة بجيوشها كما حدث عام 1401 لتنصب ابن خولة أبا عبد الله محمد مكان أخيه أبي محمد، وكما حدث عام 1411 م لتساعد أبا مالك عبد الواحد ضد أخيه السعيد •

ومما تجدر ملاحظته فى هذه الفترة ، هو تهالك أمراء بني زيـان فى الخلافات والخصومات والصراعات ، بل والحروب ، فيما بينهم أحيانا مما ساعد القوى الخارجية على الحاق الهزائم بهـم وبامارتهم ، واضعاف شأنهـم وشأنهـا •

وفى الوقت الذي أخذت فيه أخطار بني مرين تضعف وتقل على بني زيان من الغرب برزت من جديد أخطار الحفصيين من الشرق الذين تجددت أطماعهم ضد تلمسان وامارتها وأصبحوا يتحفزون للفوز بالسيطرة عليها وضمها الى مملكتهم الحفصية بالشرق ، فبعد أن انتصب الأمير أبو مالك الزياني على عرش تلمسان فى أكتوبر 1411 م اتبع سياسة الشدة والحزم فأصلح أوضاع امارته الداخلية

والتفت الى الجيران وأظهر حزمـا أكثر فاستعـــاد من الحفصيين كل المناطق التي استولوا عليها بشرق البلاد ، وتوسع غربا وقضى على نفـــوذ المرينيين ، وتدخـــل فى عرشهم ، وسيطر على فاس نفسها ، ونصب على عرشها سلطانها جديدا مواليا له • وكان عمله هذا بمثابة ضربة مطرقة شديدة التأثير وضعت حدا نهائيا لتدخل المرنيين في شؤون تلمسان •

وكانت جهود أبي مالك الحازمة هذه تجاه بني مرين بمثابة انذار للحفصيين شرقا الذين توجسوا خيفة من تفوق أمراء تلمسان عليهم ، ولذلك أعد الملك الحفصي أبو فارس عزوز جيشا ضخما من خمسين ألف محارب اتجه بهم الى تلمسان ، وعجز أبو مالك عن مواجهتهم لضخامة عددهم وعدتهم ، وتمكن الأمير الحفصي من احتلال تلمسان عام 1424 م ونصب على عرشها محمد بن الحمرة الموالي له ليضمن حماية مؤخرته ، ثم اتجه الى فاس وأخضع اليه الأمير المريني قبل أن يصل اليها ، وبعد ذلك عاد الى تونس حيث وافته الى هناك بيعة صاحب الأندلس ، وأصبح نفوذه يمتد من تونس الى الأندلس ، أما أبو مالك فبعد مدة ، أعلن خضوعه واستسلامه له فأعاده الى عرشه بعد أن نكث محمد ابن الحمرة عهده •

وبهذه الأحداث بدأ الحفصيون يتدخلون فى شـؤون تلمسان الداخلية مستغلين فرصة تناحر أمراء بني زيان فيما بينهم ، وذلك بقصد الحاق هذه الامارة بالعرش الحفصي التونسي ، ففي شهر جويلية 1463 غزا السلطان الحفصي أبو عمر عثمان تلمسان ، وفرض سيطرته على كل المناطق التي مر بها ولكن الأمير الزياني أرسله قبل وصوله ، وأبرم معه صلحا جنب الامارة أهوال الحرب ، وعـاد الأمير الحفصي من الطريق الى تونس عبر بجاية •

وعندما حاول الأمير الزياني أبو ثابت محمد الرابع أن يقاوم تسلط الحفصيين وأعلن قطع الدعوة لهم على منابر تلمسان ، قاوموه وأرغموه عن الخضوع والاستسلام ، لأن الامارة الزيانية كانت فى حالة ضعف شديد لا تقوى على مواجهتهم (12) •

النكبة بالكاتب يحيى بن خلدون :

ومن جملة الأحداث المؤلمة التي حصلت فى هذه الفترة قيام الأمير الزياني أبي تاشفين بنكبة كاتب أبيه يحيى ابن خلدون شقيق المؤرخ الكبير عبد الرحمن بن خلدون ،

---

12 ــ عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام • ط 4 • (بيروت 1982) جـ 2 • ص 189 ــ 199 •

وقتله بصورة بشعة لا تفسير لها الا جهل هذا الأمير بقيمة رجال الفكر والثقافة ، لقد كان يحيى بن خلدون كاتبا للأمير أبي حمو وعندما قسم دولته بين أبنائه طلب منه ابنه أبو تاشفين أن يعينه هو على وهران التي كان يليها ابنه الآخر أبو زيان ، فتظاهر له بالقبول ، وطلب من كاتبه يحيى بن خلدون ، أن يتلكأ فى كتابة العهد له ، وكان موسى بن يخلف يغار من يحيى بن خلدون ويحقد عليه حضوته من الأمير ، فأوعز الى أبي تاشفين بأنه هو الذي امتنع عن كتابة ولاية العهد له على ولاية وهران ، وذلك خدمة لأبي زيان والي وهران الفعلي ، فوجد أبو تاشفين على يحيى لذلك ، وترصد له مع بعض سفلة القوم ليلا عندما كان راجعا من القصر الى منزله بعد صلاة التراويح فى شهر رمضان من عام 780 هـ وطعنوه بالخناجر حتى سقط على دابته ميتا ، وفى صبيحة اليوم الموالي وصل الخبر الى السلطان فأخذ يبحث على الجناة ، وعندما علم بمشاركة ابنه أبي تاشفين فى الجريمة سكت عن الحادث وأجاب على طلبه وعينه واليا على وهران ، ونقل ابنه الآخر أبا زيان الى بلاد حصين والمرية ، وهي فعلة شنيعة تعتبر من سيآت هذا الدور وهذا السلطان والأمير معا (13).

13 ـ العبر . ج 7 . ص 140 . وكذلك ترجمة يحيى بن خلدون فى القسم الثالث من هذا الكتاب .

سادسا ــ دور التدخل الأسباني وانقراض الدولة الزيانية

ان الدور السادس والأخير من تاريـــخ الدولة الزيانية يتمثل فى كثرة التدخلات الأسبانية فى شؤونها الداخلية ، والتلاعب بأقدارها ومصيرها ، ومحاولة الاحاطة بها من كل جانب تمهيدا لاحتوائها ، كما يتمثل فى بروز قـــوة الأتراك ، كطرف رابع فى الصراع عليها الى جانب بني مرين والسعديين ، والاسبان .

وكان الاسبان بعد أن قضوا على الحـــكم الاسلامى بالأندلس عام 1492 م قد وجهوا نشاطهم لغـــزو بلدان المغرب العربي مبالغة فى النكاية بالمسلمين ومنع اللاجئين الأندلسيين من التفكير فى العودة الى وطنهم السليب ، تماما كما تفعل اليوم اسرائيل ضد الفلسطينيين ، ومحاولة منهم أيضا لاستعمار بلدان المغرب العربي من أجل استغلال امكانياته الاقتصادية ، وموانيه الاستراتيجية من الناحية العسكرية ، وقد واتتهم الفرص بسبب ضعف دولة المغرب العربي وتطاحنها فيما بين الأمـــراء الطموحين من جهـــة أخرى ، حتى فى داخل البلد الواحد ، تماما كما حصل فى المنطقة العربية بعد ظهور دولة اسرائيل .

وكانت الدولة الزيانية فى هذه الفتـرة قد وصلت الى أقصى درجة من الضعف والانحلال ، فأخذ الاسبـان يحتلون موانيها وأطرافها تمهيدا لاحتوائها فى النهاية وفق مخطط استعماري مدروس ، فبعد أن وصل الى تلمسان آخر أمراء بني الأحمر بغرناطة أبو عبد الله محمد بن سعد الزغل عبر وهران ، بدأت التهديدات الاسبانية تظهر فى الأفق ضد تلمسان ، واضطر الأمير الزياني محمد السابع أن يذهب بنفسه الى اسبانيا ليطمئن فرديناند الخامس ، ويقدم له الهدايا استرضاء له ٠

وابتداء من عام 1503 أصبح الخطر الاسبانى عـلى الجزائر حقيقة واقعة ، فقد تنافس على عرش تلمسـان الأخوان ، أبو زيان الثالث المسعود وأبو حمـو الثالث بوقلمون ، وتغلب الثانى على الأول وأدخله الى السجن فاغتنم الاسبان فرصة هذه الاضطرابات بتلمسان وأقدموا على احتلال المرسى الكبير عام 1505 ، ثم تدخلـوا فى مشاكل عرش تنس وأيدوا الأمير يحيى بن الثابتي شقيق السلطان أبي زيان المخلوع والسجين ، عـلى الاستقلال بمدينة تنس وأحوازها عام 1506 تحت حمايتهم ، وتوجيه من ساستهم حتى لا تقوم وحدة وطنية ضدهم ، وقد تسبب التدخل الاسباني فى مشاكل تنس فى حدوث حروب طاحنة بين عرش تنس وعرش تلمسان سالت فيها الدماء ، وقتل

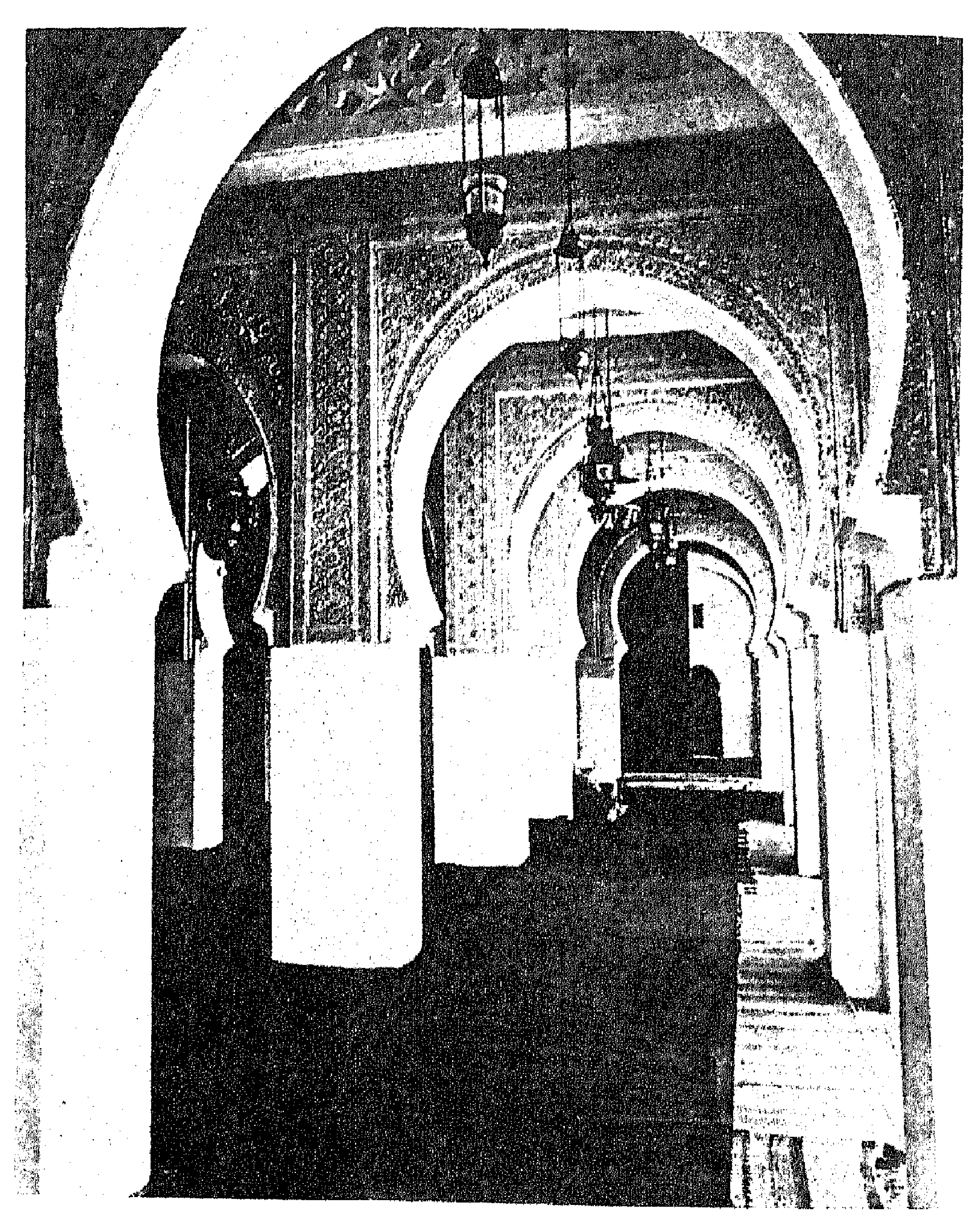
الجاني والمذنب والبريء ، ولم يستفد من ذلك سوى الاسبان اللذين ثبتوا أقدامهم فى بعض أطراف الامارة ، واحتلوا وهران عام 1509 ، ثم بجاية عام 1510 والجزيرة المواجهة لمدينة الجزائر ، ومستغانم عام 1511 ودللس ، وعنابة وهنين عام 1531 ، وأصبحت تلمسان بين فكي كماشة يحيط بها خطر الاسبان من كل جهة ، وليس هناك نصير أو معين لها فى حين لا تملك هي القوة والعدة الكافية التي تساعدها على مواجهة هذه الأوضاع الخطيرة (14) .

ولقد كان من المفروض فى مثل هذه الظروف الصعبة ، أن تتوجه القوى الداخلية للامارة ، وتتكتل وتتناسى الأحقاد والاحن ، والنزعات الشخصية ولكن الذي حصل هو العكس ، فحدثت بتلمسان اضطرابات ضد أبي حمو الثالث وتحزب ضده أنصار أخيه المسجون أبي زيان ، واستنجدوا بعروج فى الجزائر العاصمة الذي كان آنذاك فى تنس يقوم بتصفية الحساب مع يحيى الثابتي الموالي للاسبان ، فلبى رغبتهم حتى يفوت على الاسبان فرصة الانقضاض على تلمسان ، واتجه اليها عام 1517 وأطلق

14 ـ عن التحرشات الاسبانية ضد امارة تلمسان وسواحل الجزائر وبلدان المغرب يمكن العودة الى كتابنا : علاقات الجزائر الخارجية مع بلدان ومماليك أوروبا 1500 ـ 1830 . والى كتابنا الآخر وهران عبر التاريخ وكلاهما تحت الطبع وقد فصلنا فيهما هذه الاحداث وأشرنا الى المصادر ذات الصلة بذلك .

سراح أبي زيان وأعاده الى عرشه في حين فر أبو حمو الى فاس ومنها الى وهران حيث أمده الاسبان بقوات كبيرة ، فأعاد الكرة على تلمسان واستردها من عروج عام 1581 بمعاونة الاسبان الذين تمكنوا من قتل عروج وقتل أخيه اسحاق الذي كان يرابط في قلعة بني راشد قرب مدينة معسكر .

على أن أبا حمو هذا لم ينعم طويلا بعرشه الذي استرده بالخيانة اذ توفي في نفس العام ، وخلفه أبو محمد عبد الله الثاني، وسار على منوال سياسة سلفه في موالاة الاسبان ، فثار عليه أخوه الأمير أبو سرحان المسعود بتأييد من خير الدين بالجزائر ، وسيطر على تلمسان عام 1519 ، ولكن أبا محمد سرعان ما استرد عرشه بتأييد من خير الدين أيضا بعد أن أعلن توبته من غيه وخياناته السابقة ، ودفع ذلك أبا سرحان لمالأة الاسبان ، غير أنه سرعان ما عاد الى خياناته التي جبل عليها ، ولكن خير الدين كان بالمرصاد له حتى توفي عام 1524 فخلفه على عرش تلمسان محمد السابع ، ولكنه انحاز الى الاسبان ضد الأتراك بالجزائر ، فثار السكان ضده وهزموه ففر الى وهـران ليستنجد بالاسبان الذين كانوا ينتظرون مثل هذه الفـرص لدفع الأخوان الأشقاء الى التقاتل فيما بينهم لصالح توسعهم الصليبي ، فأعدوا له حملة اسبانية من وهـران احتلت



داخل مسجد سيدي بومدين .

تلمسان وفرضت عليه معاهدة اذلال تحتم عليه أن يدفع للاسبان ضريبة سنوية ، يساعد القوات الاسبانية على التوسع فى مواني الجزائر بدعوى مقاومة الأتراك •

وقد أثارت هذه المعاهدة المذلة مشاعر شعب تلمسان خاصة وأن محمد السابع كان يتعاون مع بعض اليهـود الذين جعلهم وسطاء بينه وبين الاسبان فى وهران ولذلك ثاروا ضده وبرز أخوه أبو زيان أحمد الثاني وافتك منه العرش عام 1542 بتأييد ومساعدة من قوات البايلرباي حسن باشا ابن خير الدين الذي كان يقرب الأمور عن كثب ، وهرب محمد السابع المعزول الى وهران كعادته ليستنجد بالاسبان •

وقد أمدوه فعلا بقوات كبيرة اصطدم بها مع قـوات أخيه فى شعبة اللحم قرب عين تيموشنت فى جانفي 1543 ولكنه انهزم وانهزمت القوات الاسبانية الحليفة معـه ، وقتل كثير من جنودها ، ولم ينج البـاقي الا بصعوبة وانسحب الى وهران ، وفى العام الموالي جدد الكرة مع القوات الاسبانية التي كانت تستهدف الانتقام من هزيمتها السابقة ، وتمكن فى هذه المرة من احتلال تلمسان عام 1544 ، فعاثت القوات الاسبانية فيها فسادا ، وأحدث فى مقدساتها وحرماتها نكرا وفجورا •

على أن سكان تلمسان لم يصبروا على هذا الامتهان فثاروا ضد الأمير الخائن وأرغموه علـى الفرار بتأييد ومساعدة قوات حسن باشا ابن خير الدين ، فى معركة الزيتون وأغلقوا تلمسان فى وجهه ، عندما حاول أن يعود اليها ، ثم ظفروا به وقتلوه فى احدى المعارك قرب مدينة وجدة وتخلصوا من خيانته المتكررة ، وعاد أبو زيان أحمد الى عرشه ولكنه أظهر للاسبان ميله ، ونتيجة لذلك عزله سكان المدينة وبايعوا أخاه الحسن الزياني ، فهرب هو الى وهران التي أصبحت قبلة لكل المعزولين والغاضبين من أسرة بني زيان •

ولم يتقاعس الاسبان عن نجدته لأن الصراع كان على أشده بينهم وبين سلطة الأتراك بالجزائر على الفوز بالسيطرة على عرش تلمسان فأمده بقـوات اسبانية استرجع بهـا عرشه المتهالك المتداعي عام 1547 واعترف بتبعيته للاسبان الذين تعرضوا لهزيمة كبيرة أمام أسوار مستغانم فى أوت من نفس العام عندما حاولوا احتلالها •

ومما زاد الأمور تعقيدا وسوءا ، ظهور الدولة السعدية بالمغرب الأقصى ومحاولتها هي الأخرى التدخل فى شؤون تلمسان بغية احتلالها • فأرسل الشريف محمد المهـدي السعدي قوات عسكرية حاصرت تلمسان تسعة شهـور كاملة اقتحمتها واحتلتها يوم 5 جوان 1550 ، واحتلت

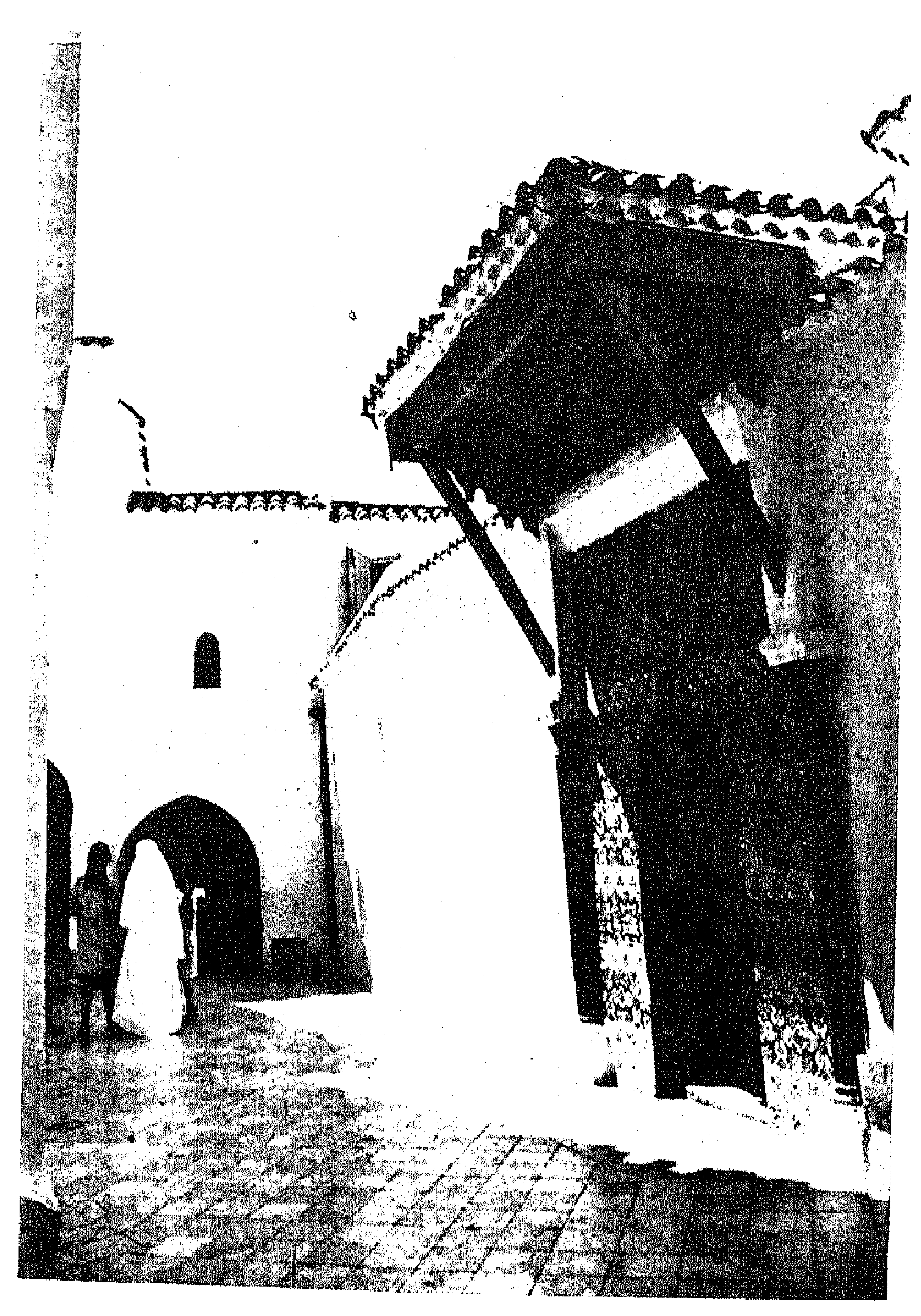
مستغانم بعدها وأخذت تتقدم في اتجاه الجزائر العاصمة مما أكد نوايا السعديين العدوانية ضد السلطة التركية بالجزائر ، ولذلك فان البايلرباي حسن باشا ابن خير الدين الذي كان يستعد لمواجهة الاسبان بوهران ، وجه قواته بزعامة حسن قورصو الى الجيش المغربي وألحق به الهزيمة في حوض الشلف ، وأرغمه على الانسحاب الى المغرب الأقصى ، وبعد ذلك اتجه حسن باشا الى تلمسان وعزل عن عرشها أبا زيان أحمد ، وعوضه بالأمير الحسن بن عبد الله الزياني تحت اشراف الضابط التركي سفطه ، وأبقى في منصبه الى أن عزله نهائيا البايلرباي صالح رايس عام 1554 بسبب ميوله الى الاسبان ، وألحق تلمسان بالجزائر العاصمة مباشرة ، وكان ذلك نهاية النهاية للدولة الزيانية التي عمرت ثلاثة قرون وثمانية عشر عاما (15) .

وكان لابد من هذه النهاية لأن بقاء الدولة الزيانية كان يمثل مشكلة ، وفي صالح التوسع الاسباني ، والأتراك بالجزائر كانوا يسعون لتوحيد المغرب الأوسط كله تحت سلطة واحدة مركزية ، حتى يستطيعوا مواجهة التوسع الاسباني الصليبي ، الذي استدعوا منذ البداية من أجل وضع حد له ورده ، وهو ما قاموا به خلال القرون التالية .

---

15 ــ عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام . جـ 2 . ص 199 ــ 209 و 222 ــ 229 .

ولعل أهم نتيجة نستخلصها من تاريخ دولة بني عبد الواد الزيانية هو أن الدول التي تهمل الاهتمام بتقوية وتدعيم جبهاتها الداخلية ، تكون مصائرها دائمـا الى الانهيار والزوال ، وتصبح مهـازل تاريخية وأضحوكات للعصر ، وللاجيال اللاحقة ، وهذه الظاهرة ماتزال حتى اليوم تتجدد فى كثير من القارات الخمس خاصة فيما يسمى بالعالم الثالث ، ولقد اتعضت الجزائر الجديدة بتجارب تاريخها القاسية والمريرة ، وأصبح اهتمامها بالبناء الداخلي، والتشييد الحضاري فى أوسع مجالاته ، يمثل « نموذجا فريدا » وصفحة مشرقة أبهرت وتبهر العالم كله ، لكونها تسعى بجد وارادة صامدة لخلق مجتمع متطور وحضارة راقية ، ثقافية وزراعية ، وصناعية ، تواكب عصر التطور السريع ، وهي اليوم وفى عام 1984 مفخرة العالم الجديد ، عالم الحرية والاستقلال السياسي ، والاقتصادي ، فى جو من اليقظة والتحفز ، والسير بثقـة الى مستقبل زاهـر سعيـد •



نهج قديم في تلمسان .

فهرس محتويات الكتاب

سحب الطباعة الشعبية للجيش

صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة بمناسبة
الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007
يُهدى ويُوضع في المكتبات ولا يباع

5.1
95

Bibliotheca Alexandrina
0645295

ISBN : 978-9947-24-113-4

